الفصل الثاني

ثورات المصريين في العصور القديمة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

ثورات المصريين في العصور القديمة

المصريون القدماء والتوحيد

عرفت مصر التوحيد منذ فجر تاريخها فقد أرسل الله تعالى إدريس إلى مصر نبيّاً ورسولاً قبل الألف الثامنة قبل الميلاد وفي هذا التاريخ ولدت أول حضارة عرفها التاريخ حضارة بنيت على التوحيد والعلوم المقدسة التي أنزلها الله تعالى على نبيه إدريس ومن جاء بعده من أنبياء ورسل .

ويعدد لنا المؤرخ " ابن إياس " من عرفتهم مصر من الأنبياء عليهم السلام فيحصيهم بثلاثين نبيّاً منهم :

إدريس ، وإبراهيم الخليل ، وإسماعيل – على أحد الأقوال – ويعقوب ، ويوسف، واثنا عشر من أبناء يعقوب وهم الأسباط ، ولوط ، وقد ولد بها موسى ، وهارون ، ويوشع بن نون ، ودخلها دانيال ، وأرميا ، وعيسى ابن مريم ، وسليمان بن داود ، وأيوب ، وشعيب عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .

كما دخلها أيضا من الصدِّيقين : لقمان الحكيم ، والخضر ، وذو القرنين . (١)

وهؤلاء الصدِّيقون " لقمان ، والخضر ، وذو القرنين ذكر كثير من علماء المسلمين أنهم أنبياء .

وليس هؤلاء فقط من بعثوا في مصر من الأنبياء والمرسلين بل هناك رسل آخرون بعثوا في مصر ذكرهم المصريون القدماء في برديا تهم ولم يقصصهم الله تعالى علينا

(١) نقلاً عن د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٧ .

obeikandl.com

في القرآن الكريم { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} (النساء : ١٦٤)

المصريون القدماء والكتب المقدسة

يوجد في الوثائق المصرية القديمة العديد من الشواهد على نزول كتب مقدسة على بعض الأنبياء الذين بعثوا في مصر وأن هذه الكتب المقدسة كانت لها في نفوس المصريين قداسة هائلة ، وأنهم كانوا يلتزمون التزاماً كاملاً بكل ما جاء فيها ونجد هذا على سبيل المثال في نصائح ووصايا الحكيم "آني" إذ يقول: " إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزَّلة . " (١)

يقول د. سيد كريم عالم المصريات الكبير : " عندما وحَّد " مينا " البلاد اعتمد في دعوته إلى توحيد العقيدة ، وعبادة الإله الواحد ، بعدما أعلن أنه رسول الله لهداية الناس وحامل رسالة الإله الأعظم إلى البشر لصلاح الدين والدنيا جميعاً .

كان ذلك النظام السياسي والاجتماعي الذي أهداه المصريون للعالم أجمع وتحول فيه الدين إلى دعامة أيديولوجية للمجتمع ، أعظم تجربة إنسانية أمكن إرساء قواعدها ، فوضعت أول دستور لحياة المجتمع يخضع لتشريعات سماوية أنزلها الله على الملك ، وكانوا لا ينادون الملك باسمه بل أطلقوا عليه لأول مرة اسم "برعون" (فرعون) أي القصر الكبير ومصدر النور لأن الملك لا يعتبر فرداً ذاتيّاً بل ممثلاً للإله ينفِّذ رسالته، وأنه لا يموت بل يصعد إلى الله عندما يؤدي رسالته المكلف بها ليحل مكانه في القصر وريثه الشرعي ، وكان فرعون يفاخر بأنه يأخذ بقانون "ماعت" ولا يحيد عنه ويسود الأمة بالعدل والحكم الصالح والإدارة العادلة التي تحكمها القوة الكونية التي تتمثل في الانسجام والنظام والاستقرار الذي وضعه الإله للكون ودورته .

(١) د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " ص ١٩٧ .

obeikandl.com

فإذا كانت التشريعات السماوية التي تنزَّل بها الأنبياء هي التي أخرجت المجتمعات البشرية من ظلمات الجاهلية إلى نور الحق فإن هذه التشريعات نفسها هي التي أسس بها المصريون القدماء حضارتهم .

لقد استمر نظام ذلك الحكم الملكي الذي جمع بين العقيدة والسياسة خلال الدولة القديمة ، وكان للملك من الألقاب : قاضي القضاة في السلم ، وقائد القواد في الحرب ، والكاهن الأعظم لجميع المعابد ، والأمين على بيت المال والخزائن . " [1]

وجميع أنبياء الله تعالى بعثوا بما بعث به الأنبياء المصريون أو الأنبياء الذي بعثوا في المصريين فكلهم حملوا رسالة الله إلى البشر وأدوها ، ولم تكن رسالتهم قاصرةً على الشعائر الدينية فحسب بل كانت شاملة لكل جوانب الحياة : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعسكرية فقد كانوا جميعاً – كما كان حكام مصر القديمة إبان ازدهار العقيدة – القضاة في السلم ، والقادة في الحرب ، وأمناء بيت المال ، وقبل ذلك وبعده أئمة العابدين لله المتمسكين بشعائر الدين ونسكه .

وإذا مات أحد الأنبياء انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وقام وريثه الشرعي برسالته .

عن عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ فَلَمَّا اشْتَكَى، وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ، وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ، غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ، شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ " [متفق عليه] .

كما أن أي نبي عندما يموت يرثه الوريث الشرعي فقد ورث إسحق أباه إبراهيم، وورث يعقوب أباه إسحق ، وورث يوسف أباه يعقوب ، وورث سليمان أباه داود .

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[الأنعام:٨٤،٨٣]

([1]) د. سيد كريم " لغز الحضارة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٣٠٠، ٣٠١ بتصرف .

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾ [النمل:١٦] .

وهذا ما كتبه المصريون القدماء عن حكامهم أنه إذا مات أحدهم صعد إلى السماء وورثه وريثه الشرعي .

يقول د. ناصر الأنصاري : " كان الإيمان بالله الواحد – ولا يزال وسوف يظل بإذن الله – متغلغلاً في نفس المصري منذ قديم الأزل . وليست الحضارة المصرية القديمة إلا شاهداً على ذلك ، فلولا الإيمان بالله لما قامت هذه الحضارة ولما استمرت ما يقرب من الثلاثين قرناً من الزمان " (١)

وعلى العلم والتوحيد والعدل بنى المصريون القدماء حضارتهم العظيمة .

يقول د. سمير أديب : " كان المصريون القدامى هداة وعلماء ومرشدين ، يوم أن كانت الدنيا طفلاً يحبو في جهالة القرون ، نقشوا على الحجر ، وكتبوا على الورق، واهتدوا إلى معرفة الإله الواحد الأحد يوم كانت الشعوب الأخرى تضطرب جهلاً بين العديد من الآلهة ينسبون إليهم ما يعجزهم من مظاهر وأحداث ، عرفوا العدل والحق والحرية وآمنوا بالقيم المثلى ، انتظمت في بلادهم الإدارة ، ونمت لديهم مقومات الأمة يوم كانت الشعوب تعيش فرقاً متناثرة وقبائل متناحرة . " (٢)

إذن وبناءً على ما تقدم فإن المصريين القدماء لم يكونوا مشركين يعبدون آلهة متعددة كما هو مشهور بل كانوا أول شعوب الأرض إيماناً بالله الواحد الأحد وبشريعته وعلومه المقدسة ، ذلك التوحيد هو الذي بنوا به حضارة مصر وفي كل مرة حاولوا إقامة الدولة كانت الفكرة الأساسية فيها توحيد العقيدة والإيمان بالإله الواحد ، وكل مرة شاعت الفوضى والاضطراب في ربوع مصر كان نتيجة تخلي حكام مصر عن اتباع شريعة الله .

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٧ .
(2) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " العربي للنشر والتوزيع ص ١٠ .

openkanal.com

يقول د. سيد كريم : " الإيمان والعلم كانا أساس حضارة مصر الخالدة في مختلف عصورها الذهبية ، والتخلي عنهما كان السبب المباشر في انحلال الحضارة وانطفاء شعلتها وترديها في عهود الاضمحلال . " (١)

وهذا ما يحل لنا اللغز الذي حيَّر المؤرخين وعلماء الآثار وهو ظهور الحضارة المصرية القديمة كاملة النمو بمعرفة متكاملة في مختلف العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والطب والفنون والآداب والعمارة ،والأعجب من ذلك – أو ربما ما يفسر ذلك – تكامل العقيدة " بتوحيد الإله " رع " رب الأرباب وخالق الكون ورمزوا لقدرته بقرص الشمس وعبَّروا عنه بالقوة الخفية الكامنة التي تهب الحياة وتسيِّر الكون . " (٢)

نظام الحكم عند المصريين قدماء

إن دين الله تعالى ليس مجموعة من الشعائر التي تؤدى في بيوت الله ولا علاقة لها بحياة الناس ومعاشهم ، هذه فكرة قاصرة لدين الله فدين الله الذي شرع للناس شامل لكل مناحي الحياة ، فكل حياة المرء لابد أن تكون لله تعالى .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

وقد كان النبي ﷺ حاكماً على المدينة ، وقاضياً بين الناس ، وقائداً للمسلمين في المعارك ، وأميناً على بيت مال المسلمين ، ومعلماً ، ومربياً ، ومصلحاً ، وشَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً .

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو الله تعالى بهذا الدعاء : " اللهمَّ ! أَصلِحْ لي ديني الذي هو عصمةُ أمري . وأصلِحْ لي دنيايَ التي فيها معاشي . وأصلِحْ لي آخرتي التي فيها مَعادي . واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خيرٍ . واجعلِ الموتَ راحةً لي من كلِّ شرٍّ" [رواه مسلم] .

---

(1) د. سيد كريم " لغز الحضارة " مرجع سابق ص ٣٢٢ .
(2) نفسه ص ٦٦ .

obeikandl.com

ونظام الحكم منصوص عليه في الشرائع السماوية ، ولقد أمر الله تعالى الناس أن يحتكموا إلى ما أنزل .

يقول تعالى : { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } (المائدة : ٤٤)

فمن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده ، فأخفاه وحكم بغيره "فأولئك هم الكافرون " .

وقد كان نظام الحكم عند المصريين القدماء يسير وفق شرع الله ولا يخرج عنه .

يقول د. سليم حسن : " لم تكن الحكومة المصرية في نظر الشعب المصريِّ نظاماً اخترعه الإنسان أو أنه جاء نتيجة تطور سياسيٍّ – كما زعم المؤرخون العلمانيون – بل كان هبة الله لشعبه أُسِّس عند خلق الدنيا . " (١)

ولما العجب وقد كان إدريس عليه السلام هو الذي حكم الشعب المصريَّ في بدايات الخليقة ، فإدريس قد جمع بين النبوة والحكمة والمُلْك .

يقول الإمام المناوي " قال ابن فضل اللّه: كان إدريس يسمى هرمس المثلث كان نبياً وحكيماً وملكاً ووزيراً " (٢)

وقال القنوجي في كتابه أبجدية العلوم : " إن آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان، وكان أولاده تتلقاها بوصيته منه، وبعضهم بالقوة القدسية القابلة، وكان أقرب عهد إليه إدريس عليه السلام، فكتب بالقلم واشتهر عنه من العلوم ما لم يشتهر عن غيره، ولقب بهرمس الهرامسة والمثلث بالنعمة لأنه كان نبيّاً ملكاً حكيماً." (٣)

وذكر ابن إسحاق أن إدريس قد أدرك من حياة آدم عليه السلام ٣٠٨ سنوات لأن آدم عمَّر طويلاً زهاء ١٠٠٠ ألف سنة .

([1]) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " الهيئة المصرية العامة للكتاب.ج١ ص ٢٣٨

([2]) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " الجزء الثالث تابع حرف الهمزة .

([3]) أبجد العلوم للقنوجي ج١ / ص ١٦٤ .

obeikandi.com

ولا يعلم إلا الله كم عاش إدريس بعد آدم ، وكم سنة حكم فيها المصريين ، ولكن الذي أكده المفسرون والمؤرخون إن إدريس عاش طويلاً وكان كداود ملكاً نبيّاً .

كذلك كان نبي الله يوسف حاكماً في مصر .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فلما كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ* قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[يوسف : ٥٤ -٥٦]

يقول د. سليم حسن : " لم يكن الفرعون مجرد حاكم مستبد يسيطر على قوم على الرغم من إرادتهم بل كان يحكم بحقه الإلهي بكل معاني الكلمة . " (١)

وكان الحاكم في مصر القديمة ليس مطلق اليد بل هو مقيد بشريعة الله ، لا يخرج عليها ، وإلا خرج الناس عليه .

ودونك دستور الحكم في مصر : " إن المصري القديم اعتقد أن أوَّل من حكم على الأرض والعالم بأجمعه هو " رع " إله الشمس ، وقد وضع هذا الإله قانوناً يسمى "ماعت" ومعناه الصدق والعدل والحق والعدالة الاجتماعية والحكم الصالح ، ولما رفع "رع" نفسه إلى السماء حكم ابنه (٢) على الأرض ولقبه " بابن رع " (خليفة الله) وهو الملك ، وقد كان على كل ملك يتبوأ عرش مصر أن يسير في حكمه تبعاً لقانون "ماعت" فإذا ما حاد عنه قيد أنمله فلشعبه ألا يعتبره ابناً " لرع " ولا يحكم البلاد .

لذلك نرى أن البلاد سارت تحكم بقانون " ماعت " مدة طويلة وهي تنعم بالرخاء طوال عهد الدولة القديمة حتى إذا ما انتصف حكم الأسرة السادسة أخذ الملوك يحيدون عن الحكم بقانون " ماعت " حتى انهارت البلاد وهوت إلى مزالق الذلة."(٣)

---

(1) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " مرجع سابق ج١ ص ٢٣٨

(2) " ابنه " هنا ليس بالمعنى الحقيقي إنما معناها خليفته مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

(3) محمد صابر " مصر تحت ظلال الفراعنة " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١١

وقبل أن نتحدث عن قانون ماعت لابد أن نؤكد أن المصري القديم لم يكن يعيش حياة العبيد تحت حكم الفراعنة المتألهين المستبدين كما يزعم كثير من المؤرخين إنما كان يحيى حياة عزة وكرامة يحققها له حكامه المؤمنون بالله تعالى وبدستور الحكم الإلهي " ماعت " ومتى خرج أي من هؤلاء الحكام على الدستور الإلهي ثار عليه المصريون .

فرعون اسمٌ عَلم وليس لقباً لحكام مصر القدماء

إن فرعون موسى الذي عمم الكتَّاب تألهه وتجبره على سائر حكام مصر ما كان إلا أحد الاستثناءات القليلة في تاريخ مصر القديمة التي خرجت على التوحيد وعلى قانون ماعت . لكن للأسف فإن علماء المصريات العلمانيين ، أجانب ومصريين ، وعلماء الدين ، مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، قد جعلوا حكام مصر كلهم متألهين ومستعبِدِين ، وجعلوا المصريين القدماء جميعهم كفاراً مستعبَدين .

ووفقاً لكلام علماء المصريات لم تظهر كلمة "فرعون" إلا في الدولة الحديثة ولم تكن كلمة "فرعون" معرفة في زمن الدولتين : القديمة والوسطى ، ولم تُعرف كلمة "فرعون" إلا زمن الدولة الحديثة فقط أي منذ حوالي ١٥٥٠ ق.م بتقدير د.زاهي حواس وينزل أصحاب معجم الحضارة المصريَّة بظهور كلمة "فرعون" إلى ألف سنة قبل الميلاد فقط .

فقد جاء في معجم الحضارة المصريَّة " فرعون : لم يستعمل هذا اللقب الذي يوحي إلينا بشخصيَّة ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة ، إلا في الألف سنة الأولى ق. م كلقب للملك عندما أنجزت مصر ما أراده لها القَدَر ، ولم يعد ملوكها يبهرون الدنيا بأعمالهم كأسلافهم الذين حكموا أيام عظمتها نقلنا كلمة " فرعون " عن لفظ حقيقي رسمي في التوراة وهي مشتقة من اللفظ المصري " برعا " أي " البيت العالي " التي بعد استعمالها للقصر استعملت لصاحبه . غير أن لقب فرعون لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمي لملك . (١)

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان بويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " ترجمة أمين سلامة ، مراجعة د. سيد توفيق . الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية . ص ٥١ ، ٥٢ .

وعلى ذلك فالمتَّفق عليه بين علماء المصريات أن كلمة فرعون " لم تظهر إلا في الدولة الحديثة ، واختلفوا في زمن ظهورها ما بين ١٥٥٠ ق.م ، وألف ق.م والراجح عند علماء المصريات الغربيين والمصريين أن ملك مصر زمن سيدنا موسى كان " رعمسيس الثاني " الذي ادَّعى الألوهيَّة وأهلكه الله غرقاً.

وعلى ذلك فهناك اتفاق تام بأن كلمة " فرعون " ليست لقباً لكلِّ حكام مصر القديمة ، ولم تظهر إلا في عهد الرعامسة في الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في النصف الثاني من الدولة الحديثة والراجح إنها لم تظهر إلا في عهد " رمسيس الثاني " الذي اضطهد بني إسرائيل وأغرقه الله تعالى في اليم ونجَّاه بعد موته ببدنه ليكون لمن خلفه آية . (١)

قانون ماعت

قلنا إن حكام مصر في عصر الدولة القديمة قد اتخذوا قانون " ماعت " دستوراً للحكم ، وأن طاعة المصريين حكامهم كانت مشروطة بالتزامهم بتطبيق قانون ماعت فإن خرجوا عليه ثار المصريون عليهم .

ولقد مثلت شريعة " ماعت " القانون الأساسي لجميع الطبقات الاجتماعية، ولم يكن هناك من هو فوق القانون على الإطلاق،وكان المواطنون في مصر القديمة طائعين للقانون، حيث خشوا العقاب في الحياة الدنيا والآخرة، وكانت الدعاوى القضائية تنظر في المحاكم المحلية باستثناء الجرائم التي تنطوي على عقوبة الإعدام، التي ينظرها الفرعون باعتباره القاضي الأعلى .

يقول د. سليم حسن : { كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنها فكرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخلاق ، فهي العدالة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقية واجتماعية فهي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " **ومن ثمَّ** قَبِل الشعب

(١) لمزيد من التفصيل حول حقيقة كلمة فرعون راجع كتابنا " لسنا فراعنة ولا عربا ولا أوروميتوسطين "

obeikandl.com

المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بل لأنه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خالِق الخلْق ، وقد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسيرون حسب تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثمَّ كانت أول ثورة اجتماعية في تاريخ البشرية استمرت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون "ماعت " أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى " (١)

وبناءً على ذلك فإن فترة فرعون موسى تعد إحدى تلك الفترات القليلة التي خرج فيها الفرعون على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرة لكل من تسوِّل له نفسه الخروج عن قانون " ماعت" .

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ {٥٤} فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٥٥} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٤ – ٥٦]

إن قانون " ماعت " هو شريعة الله التي أمر الله الإنسان بتطبيقها ، حتى يكون خليفة في الأرض ، ويحافظ على توازن الكون .

يقول علماء المصريات : " عندما خلق الخالق الكون ، شكَّل دنيا ثابتة في مظهرها ووظائفها ، وأن كل شيء بداخل هذا العالم مطابق للخطة الإلهية الموضوعة ، ولا حاجة إلى إدخال أي تحسين في أية مرحلة تالية ، وقد أطلق المصريون القدماء كلمة " ماعت " على توازن العالم كله ، وتعايش جميع عناصره في انسجام ، وعلى تماسك وحداته الذي لا غنى عنه للمحافظة على الأجسام المخلوقة .

كان هذا التفاعل بين القوى هو الذي ضمن نظام الكون بدءاً من مكوناته الأساسية : كالحركات السماوية ،وانتظام الظواهر الموسمية ،وتعاقب الزمن، وشروق شمس جديدة في كل صباح .

(١) د. سليم حسن " تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني " مرجع سابق ج١ ص ٢٣٩

إلى أقل هذه الظواهر والمجتمع الإنساني نفسه ، والعلاقات الودية بين الأحياء ، والمراعاة الدينية لكل الطرق التي سنَّها الإله للأشياء ، واحترامها ، تلك القواعد التي اشْتُقَّتْ منها عدالة العلاقات الاجتماعية والحياة الخلقية . وهكذا كانت "ماعت" هي كُلاً من النظام الكوني ، والأخلاقي اللذين يعملان معاً في جميع الظروف تبعاً لوجهة نظر الإنسان عن نظام الكون . " (١)

يقول يان أسمان (٢) : " ماعت تعني أساساً " النظام الكوني " أو " النظام الكوني المتكامل " ، وهذا التصور يجد ما يقابله في الفكر أو في مفردات الحضارات الشرقية الأخرى . ويلخص " شميد " (٣) النتائج التي حصل عليها بقوله : إن تأملات الحضارات الشرقية عن العالم تنطلق من نقطة واحدة وهي اعتقادهم في نظام كوني مطلق وكفيل هذا النظام هو الخالق الواحد الذي لم يخلق العالم فقط ، وإنما يحافظ على النظام الكوني كسيِّد أعلى والملك يمثله في نفس الوظيفة على الأرض . " (٤) وعلى أساس قانون " ماعت " سوف يحاسب الإنسان يوم القيامة فيوضع القانون "ماعت" في كفة ، وقلب الإنسان في كفة ، فقانون " ماعت " يكون : " صنجة (الثِّقْل) توضع في الميزان لوزن قلب الميِّت عند المحاكمة لمعرفة إذا كان "ماعتياً" أو بمعنى آخر يطابق ماعت أي إنسان خيِّر أم لا .. ولهذه الأسباب اعتبرت "ماعت" تجسيداً للحقيقة والعدالة . " (٥)

---

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٩٧

(٢) يان أسمان ، عالم ألماني كان يعمل بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، وهو يشغل منذ عام ١٩٧٦ منصب أستاذ بجامعة هيدلبرج أقدم جامعة ألمانية ، وفي عام ١٩٨٤ انتخب عضواً في أكاديمية العلوم بهيدلبرج . وقد نشر مصنفاً ضخماً يرجم فيه الأناشيد والأدعية المصرية القديمة .

(٣) شميد ، عالم متخصص في العهد القديم ، وأكثر علماء الغرب تحليلاً للتصور المصري للماعت ، والذي قدَّم تفسيره عن " العدالة كنظام الكون المتكامل " عام ١٩٦٨ والذي يعتبر اليوم رأيّاً متفق عليه بين علماء المصريات . انظر يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " ترجمة د. زكية طبوزاده ، ود. علية شريف دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ص ٢٢

(٤) يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " مرجع سابق ص ٢٢ ، ٢٣

(٥) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٩٧ .

وهذه بعض إجابات إنسان ثقلت موازينه في الآخرة لأنه اتبع شريعة " ماعت " في الدنيا ولم يرتكب ما يخالفها .

- أنا لم ارتكب جريمة قتل .
- أنا لم ارتكب جريمة اغتصاب .
- أنا لم انتقم لنفسي ، ولم أُرْهِب أحداً ، ولم أقم بفتنة .
- أنا لم أسبب لأحد ألماً ، ولا حزناً .
- أنا لم أظلم أحداً من الناس ، ولم أتصرف بطريقة شريرة .
- أنا لم أسرق ، ولم آخذ شيئاً ليس من حقي .
- أنا لم أكن مختالاً ، ولا مطففاً في الميزان .
- أنا لم أفسد الأرض الزراعية .
- أنا لم أشهد بغير الصدق ، ولم أتهم أحداً زوراً .
- أنا لم أكن فاحشاً ولا بذيئاً .
- أن لم أحتقر أحداً ، ولم أسخر من أي إنسان .
- أن لم أتجسس على أحد .
- أنا لم أتعجل في إصدار حكم ، وإذا حكمت لم يكن حكمي قاسياً .
- أنا لم أخطئ في حق أحد ، ولم أقصر في حق أحد .
- أنا لم ألوث المياه الجارية .
- أنا لم ألعن الله ولا احتقرته ، ولا فعلت ما يكرهه .
- أنا لم أسب الله ، ولم أسرق صناديق الزكاة والصدقات والنذور .

وهذه المبادئ التي جاءت في قانون ماعت يؤكدها ما جاء في " كتاب الموتى"،كتاب المصريين القدماء المقدس، عند دخول المتوفى قاعة الصدق (الحق) وقيامه بالدفاع عن نفسه يوم يرجع الناس إلى ربهم ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

- إني لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة .
- إني لم أسرق .
- إني لم أرتكب القتل .
- إني لم أسبب تعساً لأي إنسان .
- إني لم أرتكب الزنا .
- إني لم أترك أحداً يتضور جوعاً .

obeikandl.com

– إني لم أفعل ما يمقته الإله .	– لم أغتصب طعاماً .
– إني لم أنطق كذباً .	– إني لم أنقص مكيال الحبوب .
– لم أكن طمَّاعاً .	– إني لم أسب .
– لم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب .	– لم أكن متكبراً .
– فمي لم يثرثر .	– لم أعب في الذات الملكية [1].

قانون ماعت وشريعة الإسلام

وبناءً على ما ذكره المصريون القدماء عن " ماعت " يمكن أن نستنتج الآتي :

١– أن الله تعالى خلَق الكون بكل عناصره بدقة متناهية .

٢– كل عناصر الكون – بما فيها الإنسان – متوازنة في خصائصها ، ومتوازنة مع غيرها من بقية العناصر .

٣– إن أي خروج على نظام الكون يعد إفساداً له .

٤– أن الله تعالى أنزل قانون " ماعت " ليطبقه الإنسان في حياته ، فتصلح حياته وحياة سائر المخلوقات .

٥– يوم القيامة سيكون حساب الإنسان وفق قانون " ماعت " .

٦– الإنسان الخيِّر هو من جاء بقلب سليم مما يخالف قانون " ماعت " .

٧– الإنسان الشرير هو من كذَّب بقانون " ماعت " واتبع هواه .

ولو قارنَّا قانون " ماعت " بشريعة الله كما تبدَّت في أروع صورها في الديانة الإسلامية آخر الرسالات السماوية لوجدنا أن الإسلام لا يناقض شيئاً من قانون "ماعت" بل جاء بتمام هذا القانون وكماله .

لقد خلق الله تعالى الكون بكل عناصره متوازناً ومنسجماً بعضه مع بعض .

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

---

(1) د. حربي عباس عطيتو " الفكر الشرقي القديم " دار المعرفة الجامعية ص ٢٥٦ .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ [الحجر : ١٩ – ٢٠]

تأمل قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .

كذلك خلق الله تعالى الإنسان متوازناً : روحاً ، وعقلاً ، وقلباً ، وجسداً .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤]

﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

وكما أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ التوازن للإنسان والكون ، فكيف ذلك ؟

أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل . (١)

﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩ [

{وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء:٤٧]

الآن بعد بيان مفهوم العدل في الشريعة الإسلامية برجاء العودة لقراءة قانون "ماعت" مرة أخرى والبحث فيه عما يتناقض مع شريعة الإسلام .

والذي يؤكد أن حكام مصر لم يكونوا كلهم طغاة – كما يظن الكثيرون – إنما كانوا ملتزمين بقانون " ماعت " تلك الأمثال والحكم التي جاءت على لسانهم ، أو التي

(١) لمزيد من التفصيل حول توازن ، كيان الإنسان ، وعناصر الكون ، وشريعة الله تعالى راجع كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف الفصل الأول .

obeikandl.com

وجهها الكهان لهم وكلها تهدف إلى أن العدل هو أساس الملك في الدنيا ، وشرط دخول الجنة في الآخرة .

يقول الملك " ختي " لابنه الملك " مريكارع " (الأسرة الثامنة عشر) : " هدئ من روع الباكي ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنساناً من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم لا تقتل فإن ذلك لم يكون ذا فائدة لك ، لا تقتل رجلاً تعرف مزاياه رجلاً كنت تتلو معه الكتب ، لا تميز بين ابن شخص ذي حيثية على شخص فقير بل قرِّب إليك إنساناً بسبب عمل يده " [1]

فهل يعد المصريون القدماء ، منذ إدريس عليه السلام وحتى نهاية الأسرة السادسة وبداية العصر الوسيط الأول سنة ٢٢٠٠ ق. م ، جبناء ومستذلين عندما أطاعوا حكامهم المؤمنين العادلين ، ولم يخرجوا عليهم كما زعم من وصم المصريين بالجبن والسلبية والخنوع ... ؟!!

القوانين الغربية بضاعتنا ردت إلينا

العجيب أن القانون الوضعي الذي استورده فقهاء الدستور المصريين والمطبق في مصر أصله مصري قديم !! وبدلاً من بحث علمائنا عن أسس بناء الحضارة في تاريخنا المجيد ، ودِيننا الحنيف سلكوا سُنَنَ الغرب حذو النعل بالنعل !!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سَتَتَّبِعُونَ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ بَاعًا بِبَاعٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَشِبْرًا بِشِبْرٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ مَعَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ " [متفق عليه]

يقول العلامة د. سليم حسن : " الواقع أن مصر كانت قِبْلة علماء اليونان في تلك الفترة (القرنان : السابع والسادس قبل الميلاد) من تاريخ الكنانة ، وكان حكَّام

([1]) د. أحمد فخري " تاريخ الحضارة المصرية " م١ ص ٤٤٢.

اليونان ينظرون إلى مصر على أنها مثلهم الأعلى ، ولا أدل على ذلك من أن " سولون . " [1]

مشرِّع اليونان الأعظم قد أخذ بعض تشريعاته عن القانون المصري ، والغريب المدهش أن علماء أوروبا المحدثين قد ظلُّوا إلى عهد قريب جداً ينكرون ما أخذه اليونان عن مصر إلى أن وضعت الكتب التي تثبت ذلك بما لا يتطرق إليه شك." [2]

ويحكي لنا د. وسيم السيسى قصة قانوننا الوضعي الحالي فيقول :

جاء "سولون" إلى مصر ٥٩٥ ق.م وقال: أخذني أحد الكهنة إلى بيت أفلاطون الذي أقام فيه، وقال لي: هنا.. علَّمْنا أفلاطونَ الفلسفة في مصر طوال ١٣ عاماً ! ثم ربت على كتفي قائلاً: أنتم أيها اليونانيون أطفال بالنسبة لنا! وقد أقرَّ أفلاطون بفضل مصر عليه حين ترك لنا في كتابه القوانين: ما من علم لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر.

جاء "سولون" من أثينا، ليدرس القانون في مصر الفرعونية .. هذا القانون الذي يقول عنه الدكتور محمود السقا، والدكتور محمد أبو سليمة: كان القانون المصري الفرعوني، مثاليّاً في قواعده عادلاً في أحكامه، عالميّاً في مراميه، بُني على العدل والأخلاق وشتى الفضائل، كان علامة من علامات التكوين الحضاري التي كانت فطرة المجتمع المصري التي فُطر عليها .

أخذ " سولون " القانون المصري المعروف بقانون "بوكخوريس" [3] وعاد إلى أثينا، ووضع قانوناً باسمه ألا وهو " قانون سولون" ! ومرت الأيام وذهبت لجنة رومانية تُدعى " لجنة الأشراف " من روما إلى اليونان؛ لدراسة قانون سولون المبنى على

([1]) سولون واحد من حكماء أثينا السبعة الذين لم يعرف من بينهم غيره، يعود لهم الفضل في سن قوانين اجتماعية متقدمة وذلك بعد حرب أهلية خاضها الفقراء ضد طبقة الملاك ، وسمي قانونهم قانون" أتيكا ".ويتضمن حق الملكية الفردية المحدودة، وحق الشعب في الإشراف على مؤسسات الدولة، وحق الجماعة في تشكيل وحدة لها قوانينها الخاصة التي تحكمها وتخضع لقانون الدولة العام.

([2]) د. سليم حسن موسوعة " مصر القديمة " مرجع سابق ج ١٢ صفحة ط من مقدمة الكتاب .

([3]) قانون بوخوريس : أصدره الملك " بوخوريس " أحد فراعنة الأسرة ٢٤ من ٧١٨-٧١٢ ق .م جمع فيه النظم والقوانين التي كانت سائدة قبله مع إضافة بعض التعديلات .

قانون "بوكخوريس" المصري، ووضعوا أسس القانون الروماني المعروفة بموسوعة جوستنيان، قانون الألواح الاثنى عشر ، ومرت الأيام وجاء نابليون بونابرت لينهل من القانون الروماني ويضع قانوناً باسمه: قانون نابليون!! وتمر الأيام وتأتى مصر لتضع قوانينها في العصر الحديث المستمدة من القانون الفرنسي !

ويتحقق المثل القائل: بضاعتنا وقد ردت إلينا !! (١)

كانت مصر هي أول من وضعت: العدل أساس الملك.. وأن الفرعون يحيا بأعماله العادلة، وكان الملك يقدم تمثالاً لربة العدالة " ماعت " كل سنة، تذكيراً له بأن العدل هو أساس الحكم . كما كان كل قاضٍ يضع حول عنقه تمثالاً لربة العدالة " ماعت " وهذه رسالة من أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة لأحد وزرائه : " حافظ على القانون واحرص على أن يتم كل شيء طبقاً للقانون، حتى يصل كل شخص إلى حقه "

بينما كان قانون حمورابى (البابلي).. تختلف الأحكام به حسب الطبقة لاجتماعية!!

كُتِبَ القانون المصري الفرعوني بصيغة بلاغية في منتهى الإتقان، عبارات واضحة سليمة ومختصرة، كان القانون يصاغ في محكمة العدل المسماة " دار حوريس الكبرى" .

بعد هذا كله يأتي خليل مطران ويدعى أن الفراعنة كانوا ظالمين.. استعبدوا شعبهم..! شأنه شأن كثيرين الآن بكل أسف ، ولكن أمير الشعراء أحمد شوقي يرد عليه قائلاً :

زَعَموا أَنَّها دَعائِمُ شيدَت بِيَدِ البَغيِ مِلؤُها ظَلماءُ
فَاِعذُرِ الحاسِدينَ فيها إِذا لاموا فَصَعبٌ عَلى الحَسودِ الثَناءُ
أَينَ كانَ القَضاءُ وَالعَدلُ وَالحِكمَةُ وَالرَأيُ وَالنُهى وَالذَكاءُ
وَبَنو الشَمسِ مِن أَعِزَّةِ مِصرٍ وَالعُلومُ الَّتي بِها يُستَضاءُ
فَاِدَّعَوا ما اِدَّعى أَصاغِرُ آثينا وَدَعواهُمُ خَنًا وَاِفتِراءُ

(١) " هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا " ليست مثلاً إنما جزء من آية كريمة هذا نصها : {وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} (يوسف:٦٥)

وَرَأَوا لِلَّذينَ سادوا وَشادوا سُبَّةً أَن تُسَخَّرَ الأَعداءُ
إِن يَكُن غَيرَ ما أَتَوهُ فَخارٌ فَأَنا مِنكَ يا فَخارُ بَراءُ (١)

ثورة المصريين على بيبي الثاني

إن الذي يؤكد عدم قبول المصريين للضيم ، وعدم خضوعهم للحكام الظالمين هو ثورتهم على " بيبي الثاني " الذي تولى عرش مصر وعمره ست سنوات ، ومات وقد قارب المائة ، وليس من شك أن مثل هذا الحكم الطويل لرجل واحد يحمل بين طياته التفكك والانحلال . (٢)

ولقد طال الحكم بالملك " بيبي الثاني" الذي استبدت به شيخوخته ثم بدأ يتبدل حال الحكومة فدبَّ فيها الضعف ، وقلت هيبتها وفي نفس الوقت زاد سلطان حكام الأقاليم وزادت ثروتهم ، وقلَّ ولاؤهم لصاحب العرش فزادت الأعباء على كاهل الحكومة وتعطلت المصالح واشتدت المظالم مما أدى إلى قيام ثورة ، ثورة على كل شيء ثورة على الظلم وعلى الحُكْم وحتى على الآلهة . (٣)

وعن أسباب اندلاع الثورة يقول د. نجيب ميخائيل : " كان من أظهر الأمور التي أدت إلى ذلك :

١- كثرة وشيوع المنح التي يغدقها الملوك على كبار الموظفين من أراض واسعة وغيرها يستغلونها لمصلحتهم .

٢- شيوع التوريث في المناصب والإقطاعيات الممنوحة .

٣- عدم ممارسة حق النقل والعزل بالنسبة لحكام الأقاليم مما ساعدهم على توطيد مراكزهم في أقاليمهم .

٤- انهيار السلطة المركزية .

٥- انتشار الفوضى في البلاد .

---

(1) انظر مقال د. وسيم السيسي " القانون الوضعي أصله مصري " المنشور في منتدى روح القانون بتاريخ ٢٧ /١١ /٢٠١٠ .

(2) د. جمال مختار " موسوعة تاريخ مصر عبر العصور " تاريخ مصر القديمة " ص ١٠٧ .

(3) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٤٣ .

obeikandl.com

٦- كثرة الفتن الداخلية التي دفعت جميع أصحاب المقاطعات إلى الاعتماد على أنفسهم في العناية بمقاطعاتهم وحمايتها من الاعتداء عليها . " (١)

ولقد كاشف الحكيم " أيبور " الملك " بيبي الثاني " بحقائق مرَّة عما يجري في مصر من أحداث قلبت الأوضاع رأساً على عقب فذكر له كيف عمَّ الخراب البلاد ، وكيف تهاوت المثل العليا للمصريين فاعتدى الناس على القوانين ، وانتهكوا حرمة المعابد وشردوا منها كهنتها . ووصلت إلينا بردية كاملة تحوي تحذيرات هذا الحكيم، وتُعْتَبر الوثيقة الأولى التي تسجل ثورة اجتماعية ضد قدسية الملوك وضد الطبقة الحاكمة التي ألهتها زخارف الدنيا والحياة الرغدة عن رعاية الشعب وحمايته من عوامل التفكك والانحلال . (٢)

وليت هذه الثورة ناهضت استبداد الحاكم ، وفساد حكمه إنما للأسف كانت ثورة على العقيدة المصرية أيضاً تلك العقيدة التي وحَّد الفراعنة المؤمنون بها البلاد ، وأسسوا على تعاليمها الحضارة ، ونَعِمَ جميع المصريين في ظلها بالعدل والمساواة والاستقرار والرخاء .

لقد كانت الثورة على بيبي الثاني وابنه ثورة شيوعية فوضوية لا دين لها يهديها ، ولا قانون لها يحكمها ، ولا قوة عاقلة تحميها .

يقول العلامة سليم حسن : " كان موقف الحكومة المصرية في هذا العهد يرثى له، حتى أن الشعب انتهز هذه الفرصة وقام بثورة اجتماعية طاحنة تشبه الثورة التي قام بها البلاشفة (٣) ، امتد لهيبها أكثر من قرنين من الزمان كانت البلاد ترزح فيها تحت ثقل من الفوضى والخراب . " (٤)

([1]) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر والشرق الأدنى القديم " مؤسسة المطبوعات الحديثة ص ٢١٧

([2]) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢١٨ .

([3]) البلاشفة هم من قاموا بالثورة الروسية عام ١٩١٧ تحت إمرة لينين بناءً على أفكار كارل ماركس؛ لإقامة دولة شيوعية وتعد الثورة البلشفية أول ثورة شيوعية في القرن العشرين الميلادي. كما أن الثورة على " بيبي الثاني " أول ثورة شيوعية في التاريخ .

([4]) د. سليم حسن " الأدب المصري القديم " مطبوعات كتاب اليوم يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم ص ٣١٠ .

obeikandi.com

ويؤكد د. سيد كريم [1] على شيوعية الثورة المصرية الأولى فيقول : " قامت الثورة الشيوعية الأولى في التاريخ في مصر القديمة عام ٢٢٨٠ ق. م في أعقاب الأسرة السادسة وأطلق عليها الفراعنة اسم " ثورة الرعاع " فقد انتهز زعماء الشيوعية فرصة انشغال الجيش في الدفاع عن حدود البلاد وأخذوا يعملون على تنظيم صفوفهم وبث دعوتهم وجمع السلطة في أيديهم ، وقد ساعدهم على ذلك أن الملك " بيبي الثاني " عاش قرناً كاملاً وحكم البلاد ٩٤ سنة ، فكانت شيخوخته الطويلة حافزاً لهم على التمادي والتمهيد للثورة فعندما تولى ابنه الحكم خلعه الثوار في السنة الأولى من اعتلائه العرش واختلف المؤرخون في مصيره .

بدأت الثورة بمجموعة من المنشورات والشعارات كانت الأولى من نوعها في العالم نص إحداها المنقوش على إحدى لوحات الأوستراكا : " الأرض لمن زرعها، والحرفة لمن احترفها ، وليس للسماء وصاية على الأرض " .

نادى الثوار بأنه ليس هناك سيد ومسود ، وليس هناك رئيس ومرءوس ، الجميع سواء والجميع أحرار ، ليس هناك محاكم أو سجون لأن القوانين والأحكام ضد الحرية ، وليس هناك تشريعات تقيد الناس بالسماء لأن الإله لا وجود له !!

بدأت الثورة بهجوم الرعاع على مخازن الحكومة فقتلوا حراسها ، واستولوا على ما كان فيها ، ونهبوا الأسواق والتجارة ، واستولوا على المساكن ونهبوا محتوياتها، واعتدوا على السكان وطردوا الموظفين من دواوين الحكومة .

استولى الفلاحون على محاصيل الأراضي وثمار البساتين ، واستولى قطَّاع الطرق على المواشي الموجودة بالقرى والدواب الموجودة بالمدن والطرقات .

فُتِحَت أبواب السجون ليخرج اللصوص والمجرمون للاشتراك في الثورة ، وأُغْلَقت المحاكم بعدما طاردوا القضاة ، وأُغْلقت المعابد ، وشُتِّت الكهنة ، وأُغْلقت معابدها وبيوت الحياة (معاهد العلم) ، واعتقل العلماء والمثقفون ، وسارت البلاد بخطوات

([1]) د. سيد كريم هو صديق د. سليم حسن الحميم ورفيق دربه في رحلة البحث الطويلة في تاريخ مصر القديم .

واسعة نحو التفكك والانحلال وتسلل البدو الليبيون إلى بلاد الدلتا لينشروا الخوف والذعر بين الناس ، أما مناطق الصعيد فقد انقسمت إلى ولايات استقلت عن بعضها البعض ، وتحولت إلى نوع من الإقطاع الشيوعي ، وحاول كل حاكم أن يستقل بالسلطة وينادي بنفسه أميراً أو ملكاً ، وحاول كل منهم الانقضاض على الأقاليم والولايات المجاورة ليضمها إلى ملكه ، فسادت الفوضى وفلت الزمام من أيدي قادة الثورة نفسها . (1)

إن أكبر جريمة ارتكبتها هذه الثورة في حق نفسها وحق مصر وحضارتها هو محاربتها للدين ورجاله واعتدائها على دور العبادة ، لقد ساس حكام مصر العظام شعب مصر بالدين فصارت عمارة الأرض وإصلاحها عبادة ، وإتقان العمل فريضة ، وطاعة وأولي الأمر الصالحين واجب ، وجزاء ذلك كله الخلود في الجنة.

فلما استبدلت الثورة الكفر بالإيمان ، وطواغيت الأرض بإله السماء فسدت الحياة؛ واسْتُبِيحَت كل المحرمات والحُرِمات ، وارتُكِبَت كل المنكرات في حق الإله وعباده، وفقاً لمقولة أحد الشيوعي " إذا لم يكن الله موجوداً فكل شيء مباح " !! (2)

لقد كان في مقدمة تعاليم الثورة الأولى هدم الدين وإغلاق المعابد ، ومنع الشعائر الدينية ، وحرق المقدسات وتشريد الكهنة .

وقد وصف الحكيم " ايبور " رجال الثورة الأولى بقوله : " إنهم لم يعترفوا بالإله، وكانوا ينادون بأن الإله قد مات ؛ فأغلقوا وحرقوا التشريعات والمقدسات "

وفي بردية أخرى من برديات طيبة يصفهم بقوله : " إن من نادوا بموت إله السماء، وحرقوا تعاليمه المقدسة ، وحطموا تماثيله أصبحوا يرتدون زى الكهنة ويمثلون آلهة الشر التي تعيش بينهم في الأرض . فرضوا على الشعب أن يقدم لهم القرابين التي

(1) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٢ .
(2) جاءت هذه العبارة على لسان " إيفان " الشاب الشيوعي أحد أبطال قصة " الإخوة كارامازوف " للكتاب الروسي الأشهر " دوستويفسكي" .

كان يقدمها للآلهة وأطلقوا البخور في قصورهم بدلاً من إطلاقها في معابد الإله فهم الذين يمنحون ويمنعون لا إله السماء . "

وتروي إحدى برديات طيبة أن أحد ملوك الأسرة السابعة نادى بأن الإله قد مات، ومات معه من كانوا في السماء من رسله وجنوده ، وأنه يتحدى الإله إن كان موجوداً أن ينزل الأرض ليثبت له وجوده ويريه قوته . " [1]

والعجيب أن البردية تذكر أن هذا الملك الذي تحدى الإله كان يتنزه ليلاً في حديقة قصره المطل على النيل يحيط به أعوانه وحراسه فإذا بتمساح ضخم يخرج من بين أعشاب البردي ويسحبه وهو يصرخ ليختفي به في قاع النهر ، وقد شلَّت المفاجأة حركة أعوانه وحراسه الأشداء ، ويضطر أعوان الملك إلى استدعاء الكاهن الأكبر من السجن ويطلبون منه إظهار قوته وبركته في إنقاذ الملك أو البحث عن جثته .

فأجابهم الكاهن الأكبر قائلاً : " إن ما نقوم به من دعاء وطقوس وتراتيل ، وما نقدمه من قرابين ونذور هو وسيلة التقرب والاتصال بالإله ومخاطبته لنستمد منه القوة في أعمالنا ووجودنا ، وأنتم قلتم للناس إن إله السماء قد مات ، وحرَّمتم الإيمان به فكيف ندعو من لا وجود له ؟!

وإن كان إله السماء ما زال موجوداً فلن يستمع لمن ينكر وجوده !

وإن كنتم لا تؤمنون بالخلود والعالم الآخر الذي تصعد إليه الأرواح ، وتقولون إن الروح تفنى مع الجسد في الأرض فروح الملك ستفنى مع جسده وستبقى في قاع النهر وجوف الأرض ، ولن تصعد إلى عالم الخلود عند إله السماء الذي تنكر له ؛ فاختفاء الملك هو رد إله السماء الذي تحداه طالباً منه أن يثبت وجوده وقوته . " [2]

وقد نجح الحكيم " أيبور " في وصف الثورة وأحداثها في برديته التي تعتبر من أدق سجلات تاريخ الثورة الشيوعية الأولى التي عاصر أحداثها وتطوراتها ، وقد وصف "

([1]) نصوص البرديات نقلاً عن كتاب " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٥ ، ٣٠٦.
([2]) نص البردية منقول عن كتاب " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٦ .

مانيتون " الثورة " بأن مصر حكمها سبعون حاكماً لمدة سبعين يوماً وأطلق عليهم في قوائمه الأسرة السابعة ."

ووصفهم ايبور الحكيم بقوله : " لقد أصبح يجلس على كرسي العرش سبعون فرعوناً بدلاً من فرعون واحد . كانوا دائماً على خلاف فيمن يعلو صوته على الآخرين . " (١)

وقد تعمد مؤرخو الفراعنة الذين وضعوا قوائم الملوك وبرديات التاريخ الزمني لحضارة الفراعنة ، تعمدوا إسقاط أسماء ملوك تلك الأسرات وعددهم وتاريخهم الزمني لعدم شرعيتهم لأنهم كانوا من أعداء الإله . ولما سارت إليه البلاد وحضارتها العريقة بخطوات واسعة نحو التفكك والانحلال .

وبظهور الأسرة العاشرة كما ذكر مانيتون بدأت مرحلة جديدة من مراحل ثورة التصحيح التي حاول فيها الحكام التقرب إلى الشعب وإزالة الكثير من آثار الشيوعية بالسماح بإقامة الشعائر الدينية المحدودة أو محاولة إعادة الأمن للبلاد ، وفتح المحاكم . " (٢)

أوجه الشبه والاختلاف بين أول ثورات مصر وآخرها

لعل القارئ العزيز قد لاحظ أن هناك تشابهاً ، في كثير من الأحداث ، بين الثورة المصرية الأولى ، وثورة ٢٥ يناير الأخيرة ! ويتجلى ذلك التشابه في :

١- طول حكم الحاكمَيْن ، وفساد أحوال البلاد في آخر عهدهما .

٢- توريث الحاكمَيْن نجليهما حكم البلاد من بعدهما . (٣)

٣- تبدل أحوال الحكومة في آخر عهد الحاكمَيْن (١) فدب فيها الوهن واستشرى فيها الفساد ، وقلت هيبتها في نفوس الناس وزاد سخطهم عليها .

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول الثورة الأولى راجع النص الكامل لبردية الحكيم " أيبور " في كتاب " الأدب المصري القديم " لسليم حسن مرجع سابق ص ٣١٧- ٣٣٢ .

(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٢ .

(3) صرَّح كثير من السياسيين ، وكبار الصحفيين ، والقريبين من دائرة صنع القرار بأن نظام مبارك كان يعد العدة لتوريث الحكم لجمال مبارك في حياة أبيه ، وأن حملة التوريث كانت ستنطلق في مارس ٢٠١١ ، ولكن ثورة ٢٥ يناير أسقطت مبارك قبل أن يتم سيناريو التوريث .

٤- توحُّش رجال النظام والقارونيين (نسبة لقارون) [٢] وازدياد ثروتهم وتقديمهم مصالحهم الشخصية الدنيا على مصالح الوطن العليا .

٥- شيوع التوريث في المناصب والإقطاعات الممنوحة ، وحرمان الأكفاء من تولي المناصب الرفيعة .

٦- تراجع دور مصر الإقليمي ، وهوانها في عين شانئيها ، وطمع أعداؤها فيها.

٧- اعتقال الأحرار ، وتلفيق التهم للمعارضين .

٨- إقصاء المنادين بالإصلاح ، محاربة الكفاءات الوطنية المخلصة ذوي العلم والإيمان .

٩- عدم محاسبة الفاسدين المفسدين من المسئولين وأصحاب النفوذ .

١٠- عدم جدوى النصح المخلص مع الحاكمَيْن ؛ فقد ذهبت نصائح الحكيم "أيبور" لبيبي الثاني سدى ، وقد تجاهل مبارك جميع نصائح كبار المفكرين والسياسيين المعارضين ، وأصحاب الرأي المخلصين ، وعندما سئل مبارك عن البرلمان الشعبي [٣] قال ساخراً : " خليهم يتسلوا " !

١١- بدء الثورتين بإصدار منشورات تتضمن أهداف الثورة ومطالبها .

١٢- نجاح الثورتين في إسقاط النظام الحاكم ورجاله .

١٣- انتشار الفوضى والإرهاب وكثرة السلب والنهب نتيجة الانفلات الأمني ؛ ففتحت السجون ، وخربت أقسام الشرطة ، وأُخرج المحكوم عليهم منها والمتهمون،

([1]) من المعروف أن آخر حكومتين لمبارك هما المسئولتان عن كل الانهيار الذي حدث لحكم مبارك فقد كانت حكومتا : عاطف عبيد (١٩٩٩- ٢٠٠٤) وحكومة أحمد نظيف (٢٠٠٤- ٢٠١١) لا هم لهما إلا تقديم مصالح رجال الأعمال وأصحاب النفوذ على مصالح الوطن وأبنائه الشرفاء ؛ فازداد الأغنياء غنى ، وازداد الفقراء فقراً ، وضاعت هيبة الوطن وتقلص دوره عالمياً ومحلياً .

([2]) المقصود برجال النظام والقارونيون – حكام الأقاليم في عهد بيبي الثاني ، ورجال الأعمال في عهد مبارك .

([3]) رداً على تزوير الحزب الوطني للانتخابات البرلمانية بشكل فاضح لصالح أعضائه والعمل على إسقاط ، عمداً ، رموز المعارضة ذات الشعبية الكاسحة فقد أُعْلن يوم الأحد ١٦/١/ ٢٠١١ عن قيام البرلمان الشعبي باعتباره الذراع المتقدمة للحركة الوطنية المصرية الساعية إلى تغيير سلمي شامل .

ونُهبت المحال والمخازن ، وقطعت الطرق ، ونهبت كثير من البيوت ، ولم يعد الإنسان آمناً على نفسه ، ولا على رزقه . وعاش الناس في فزع وخوف شديدين .

١٤- تزييف التاريخ وتشويه صورة النظام السابق بالكلية ، ومحو اسمه من فوق منجزاته واستبدال أسماء الثوار باسمه .

١٥- الاعتداء على الآثار المصرية القديمة وسرقة بعضها ، والاستيلاء على كثير من وثائق الدولة والقيام بإتلافها وإحراقها .

يقول د. سيد كريم عن أعمال الثورة الأولى : " هذا بجانب عامل أساسي هام وهو تزييف التاريخ الذي وصموا به في بداية حكمهم واستيلائهم على السلطة ، وهو الاعتداء على المقدسات والمتون السرية ووثائق أسرار المعرفة التي كانت تحتفظ بها المخازن السرية بالمعابد والأهرامات وبيوت الحياة (معاهد العلم) ودور العدالة وقيامهم بإتلافها وإحراقها ، والتي تعتبر أكبر جناية ارتكبت في حق الحضارة وتراثها . بالإضافة إلى تزوير تراث ما خلَّفه مَن سبقهم من ملوك الأسرة السادسة من أمجاد عمرانية وفنية حاولوا نسبتها إلى أنفسهم بإزالة أسماء مؤسسيها وإطلاق أسمائهم عليها بل امتدت إلى المقابر نفسها ليعتدوا على حرماتها ويلقوا ما بها من مومياوات في الخلاء ، ليُعِدُّوها لأنفسهم بعدما دونوا أسماءهم على أبوابها وتركوا تاريخ أعمال من سبقوهم المسجل على جدران المقبرة ليضاف إلى أعمالهم، ودارت مسيرة الثورة ليتخذ الخَلَف من الحكام قدوة من السلف يسير بمقتضاها فتبادلوا القصور ، وتبادلوا القبور ، وتبادلوا التاريخ ، وهكذا دارت عجلة التاريخ في حلقات مفرغة . " [1]

كثيرة تلك التشابهات بين الثورتين المصريتين : الأولى والأخيرة ، لكن هناك اختلافات جوهرية بين الثورتين فإن كانت الثورة الأولى ثورة جياع وهمج ورعاع وأتباع كل ناعق فإن ثورة ٢٥ يناير ثورة شباب مثقف نقي ينتمون إلى الطبقة الوسطى [2]

([1]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(2) الطبقة الوسطى هي التي تقع بين الطبقة العليا والدنيا. فالمجتمع يتوزع على ثلاث طبقات أساسية، وهي : الطبقة العليا المتحكمة في صناعة القرار ووسائل الإنتاج ، والطبقة الدنيا هي التي تقبع اقتصادياً تحت مستوى خط الفقر ، واجتماعياً على هامش الحياة من الفلاحين والعمال والحرفيين ، والطبقة الوسطى هي التي تتوفر لها بعض أسباب العيش الكريم من خريجي المدارس

openkanar.com

كما أن أعمال السلب والنهب وفتح السجون وأقسام الشرطة وإخراج المساجين وسرقة الأسلحة (١) وإشاعة الفوضى ، وإرهاب الناس ، والاعتداء على المتحف المصري ونهب بعض محتوياته ، وحرق وثائق أمن الدولة كل هذه الأعمال شباب الثورة الحقيقيون منها براء إنما تنسب هذه الأعمال إلى فلول النظام السابق ، وبلطجيته ، ورعاع الناس وسفلتهم ممن ينتهزون الفرص للقيام بالسلب والنهب والاعتداء على الناس وممتلكاتهم .

كما أن الثورة ٢٥ يناير لم تكن أبداً ثورة شيوعية قامت لمحاربة الأديان ، وإسقاط مؤسساته ، والتنكيل بعلمائه ، وهدم دور العبادة بل على العكس تماماً فثوار ٢٥ يناير الحقيقيون شباب صالح يعرف ربه ويؤدي فرائضه ، ولقد ثار من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وهي مبادئ نادت بها الأديان السماوية ، كما أن كثيراً من الذي شاركوا في الثورة منذ يومها الأول ينتمون إلى جماعات دينية مختلفة .

أنا لا أقول ذلك جزافاً أو رجماً بالغيب ؛ فقد خالطت شباب التحرير في الأيام الأولى للثورة وأشهد أنهم من خير شباب مصر أحسبهم كذلك ولا أزكي على الله أحداً.

وهذا لا يمنع اختلافي مع بعضهم ممن اتهموا مبارك بكل رذيلة وجردوه من كل فضيلة ،ووصموا كل أعماله بالفساد ،وكل منجزاته بالخراب ،ودعوا إلى وجوب إعدامه دون محاكمة ، وتعليقهم دمية كبيرة من رقبتها على أحد أعمدة إشارات مرور ميدان

والجامعات وتأخذ على عاتقها تطوير المجتمع وتقدمه وحل مشاكله وتنمية موارده واستقراره كما هو الأمر بالنسبة للشرفاء من الكتَّاب والصحفيين والأدباء ، والمثقفين من المحامين والأطباء والمعلمين والضباط وشباب الجامعات والمعاهد العليا .. وغيرهم . هؤلاء هم عماد الأمة وأساس تقدمها ورفاهيتها . فحركات التحرر والاستقلال كانت من صنع هذه الطبقة ، كما أن عمليات التغيير السياسي والاجتماعي، التي ظهرت في شكل ثورات وحركات ثقافية تنويرية، كانت أيضا من صنعهم .

(١) لقد أخرج الثائرون على بيبي الثاني المساجين ليشاركوا في الثورة أما مبارك وأذنابه فقد أخرجوا المساجين لإجهاض الثورة لا للمشاركة فيها ، تماماً كما حدث في موقعة الجمل جمعوا البلطجية للإجهاز على الثورة لا لتأييد مبارك كما زعموا .

التحرير مكتوب عليها حسني مبارك [1] ، وكذلك اتهامهم مبارك بالعمالة للأمريكان ، والعمل على إزالة اسمه واسم زوجته سوزان من كل الميادين والمنشآت العامة .

ولقد قررت محكمة القاهرة للأمور المستعجلة يوم ١٨ يونيو ٢٠١١، تعليق الحكم الذي يقضي بإزالة اسم الرئيس السابق حسني مبارك وزوجته سوزان ثابت من الميادين والمنشآت العامة .

نحن نريد ثورة ٢٥ يناير مثالاً يحتذى في الرقي والتحضر وعدم الخروج على الشرعية الدستورية ، وإقامة دولة القانون ذالك القانون الذي أهدته مصر للعالم أجمع ، كما بينا آنفاً ، ولا يدفعنا بغضنا للنظام السابق إلى ترك العدل ومجافاة الحقائق وإلقاء التهم جزافاً دون دليل .

يقول تعالى :

﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨]

أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد في كل حال. وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض. [2]

دروس مهمة من الثورة المصرية الأولى

بعد حوالي قرنين من الفوضى والخراب الذي أحدثهما خروج الحكام على الدين ومحاربتهم لرجاله ساق لمصر أسرة من الصعيد تسكن مدينة " أرمنت " أخذ أفرادها يكافحون ويناضلون حتى استطاعوا آخر الأمر أن يعيدوا إلى وطنهم الوحدة

([1]) لقد تناقشت مع بعض شباب ميدان التحرير حول رفع هذه الدمية التي تسيء للثورة السلمية العظيمة وقد اعتبرت بعض وكالات الأنباء العالمية تعليق الدمية إشارة عنيفة إلى اتجاه دموي قد تسلكه الثورة المصرية ولم يأخذ أحد بكلامي ، ولقد مزق الثوار هذه الدمية يوم ١١ فبراير فور سماعهم نبأ تنحي مبارك .

([2]) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢ .

openkandil.com

والاستقرار وبذلك بدأ في التاريخ المصري ما تعارفنا على تسميته بعصر " الدولة الوسطى " (٢١٠٠- ١٧٠٠ ق. م) واستطاعت مصر إبان هذه الفترة أن تصحو من غفوتها ، وأن تستعيد مجدها ، وتستكمل أسباب حضارتها التي كانت قد ازدهرت في عصر الدولة القديمة ، وأن نَهِبَ العالم المتحضر إذ ذاك ألواناً مختلفة من الفنون والعلوم . (١)

وهذا ما يحلم به كل مصري الآن فبعد التخلص من النظام الفاسد ورجاله يحلم كل مصري بنهضة مصرية شاملة في كل المجالات تعيد هذه النهضة مصر إلى مكانتها العظمى التي تليق بأم الدنيا وصانعة أول حضارة في التاريخ .

والإيمان والعلم هما أساس حضارة مصر الخالدة في مختلف عصورها الذهبية ، والتخلي عنهما كان السبب المباشر في انحلال الحضارة وانطفاء شعلتها وترديها في عهود الاضمحلال . (٢)

لذا ينبغي على المصرين التمسك بأسس نهضتهم ، وسر عظمتهم ، وأن يكون الإيمان والعلم شرطين أساسيين فيمن يمثلهم في حكم البلاد والمجالس النيابية وتولي المناصب العامة ، كما ينبغي التعاون مع حكامهم في صناعة النهضة وعدم الاكتفاء بالمشاهدة ، والمطالبة ، وانتظار الزعيم الذي يحقق أحلامهم ، فحتى لو أحسن المصريون اختيار الحاكم الصالح فينبغي ألا تكون سلطته مطلقة ؛ فالسلطة المطلقة مفسدة مطلقة ، وكم حاكم مصري بدأ حكمه بالصلاح والإصلاح وعندما مات لم يُخلِّف وراءه إلا الخراب والدمار ! لذا وجب على كل المصريين أن يشاركوا مشاركة إيجابية ، كلٌ في موقعة ، في صناعة مستقبل أفضل، وألا يتركوا مسئوليهم دون مراقبة أو محاسبة .

يقول الشاعر بهاء جاهين في أغنية ختام مسرحية " الزعيم " :

---

(1) د. عبد المنعم أبو بكر " العصر الفرعوني " الفصل الأول من كتاب " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية ص ٢٥ ، ٢٦ .

(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " مرجع سابق ص ٣٢٢ .

obeikandl.com

الكورال : أنت زعيمنا .. واحد منا .. ابن شارعنا عايش بينا .. وأنت الفارس وأنت الحارس .. أنت مفكر ثورة مارس .. ابني لنا عمارات ومباني .. حقق لنا يا زعيم أحلامنا .

الزعيم : لأ .. لأ .. تاني حنبدأ .

الفارس تمثاله إتشقق .

والفروسية بقت حدوتة وكلام مش ممكن يتصدق .

راح نستنى لإمتى الفارس .

مش ناقصين من تاني فوارس .

الشعب اللي مصيره في إيده .. هو الفارس هو الحارس .

والأحلام مش عاوزه فوارس .. الأحلام بالناس تتحقق . "

لم تكن ثورة المصريين على " بيبي الثاني " تعد استثناء في تاريخ مصر القديم ، ولكن الحقيقة أن المصريين القدماء ما استكانوا أبداً لحاكم ظالم استهزأ بعقيدتهم ، أو استذل كرامتهم ، أو تحكم في أرزاقهم .

ولقد ارتكب الهكسوس هذه الجرائم الثلاث في حق الشعب المصري فثاروا عليهم حتى طهروا البلاد منهم وذهبوا غير مأسوف عليهم .

فبعد أن نعمت البلاد بالوحدة والاستقرار في عهد منتحوتب الثاني ونهضت نهضة شاملة في عهد أمنمحات الأول والملوك السبعة الذين اقتفوا أثره وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران ، وخاصة في عهد سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث . حدث أن خلف أمنمحات الثالث ملوك ضعاف تلاشى على أيديهم العدل فكان ذلك نذيراً بانتهاء أيام تلك النهضة ودخول مصر مرة ثانية في عصر من عصور الفوضى والظلام ، وكثر تطلع كبار الموظفين ، وقواد الجيش ، وكل ذي سطوة إلى العرش، ونتج عن ذلك أن تعددت المؤامرات واضطرب الأمن وتسرب الفساد إلى كل مرافق الحياة .

obeikandl.com

غزو الهكسوس مصر والعذاب الأدنى

وكانت النتيجة الحتمية لاضطراب أحوال البلاد وضعف حكومتها أن سقطت فريسة حوالي ١٧٢٥ ق. م في يد عدو متربص بها إذ دهمها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطل عليها اسم " الهكسوس " واحتلوا معظم أرض مصر التي لم يبق منها إلا شريط ضيق من صعيد مصر يحكمه أمراء طيبة . (١)

كان احتلال الهكسوس مصر عقاباً من الله تعالى بسبب الصراع على الحكم وإهمال مصالح البلاد والعباد ، واندلاع الفتن ، وكثرة المظالم .

يقول مانيتون المؤرخ المصري الأشهر عن احتلال الهكسوس مصر : " إنه في عهد ملك يدعى " توتيمايوس " لسبب لا أعلمه حلَّت بنا ضربة من الله وفجأة تقدم في ثقة بالنصر غزاة من الشرق من جنس غامض لاحتلال أراضينا واستطاعوا بسهولة الاستيلاء عليها بقوتهم دون ضربة واحدة ، ولما تغلَّبوا على حكام البلاد أحرقوا مدننا بغير رأفة ، وهدموا معابد الآلهة ، وعاملوا الأهالي بقسوة فذبحوا البعض واتخذوا نساء وأطفال البعض الآخر عبيداً لهم ، وأخيراً عينوا واحداً من بينهم ملكاً يدعى " ساليتس " اتخذ منف عاصمة له وفرض الضرائب على الصعيد والدلتا . " (٢)

لقد كان غزو الهكسوس مصر ضربة من الله تعالى ليذيقهم عقوبة بعض ما عملوا، وليس أدل على حالة الفساد والاضطراب والضعف والتخاذل التي كانت تعيشها مصر حينئذ من عدم مقاومة المصريين لهؤلاء الغزاة المجهولين لدرجة أنهم لم يوجهوا إليهم ضربة واحدة كما قال مانيتون .

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]

---

(١) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ٧ .
(٢) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٨٣٦ .

obeikandl.com

فالله تعالى يعاقب الأمم التي ظلمت وأفسدت ، إن كان يرجى منها الخير ، بالعذاب الأدنى وهو عذاب الدنيا ، من طريق ما ينزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة .{ دُونَ العذاب الأكبر } أي : الأشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب الآخرة { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } عما هم فهي من شرك وكفر وفسوق وعصيان .(١)

وهذا ما حدث مع المصريين إبان احتلال الهكسوس مصر فالنصوص المصرية ترجع سهولة غزو الهكسوس مصر إلى " وباء كان فيها ، ولم يكن هناك سيد بين المصريين يقوم ملكاً عليهم " (٢)

يقول تعالى { وَلَقَدْ أرسلنا إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأساء والضراء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } .

البأساء : تطلق على المشقة والفقر الشديد ، وعلى ما يصيب الأمم من أزمات تجتاحها بسبب الحروب والنكبات . والضراء . تطلق على الأمراض والأسقام التي تصيب الأمم والأفراد .

ولقد عاقب الله تعالى المصريين باحتلال الهكسوس أرضهم ، ونهب ثرواتهم لعلهم يخضعون ويرجعون عن فسادهم ،وظلمهم أنفسهم ، وتفرق كلمتهم ، وتعطيلهم شريعة الله . ويهبوا للدفاع عن بلادهم ومعتقداتهم .

وهذا ما حدث بالفعل فالمصريون الذين لم يقاوموا المحتل الغاصب ما لبثوا أن ثاروا عليه حتى طردوه ، ولم يكتفوا بذلك بل غزو البلاد المجاورة وكونوا إمبراطورية عظيمة.

---

(1) الشيخ محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط "

(2) نقلاً عن د. عبد المنعم أبو بكر " العصر الفرعوني " الفصل الأول من كتاب " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٢٧ .

openkandil.com

ثورات مصر ضد الهكسوس

يزعم المؤرخون أن الهكسوس دخلوا مصر دون أن يريقوا دماً . ولكنهم عاثوا فساداً فهدموا المعابد واستعبدوا المصريين الذين لم يرضخوا لذلك النير فرفعوه عن أعناقهم وثاروا في وجه المغتصب وطاردوه حتى طردوه وطلبوا الموت في سبيل حريتهم .

ولم يتصف المصريون قديماً بالبسالة والشجاعة بمثل ما اتصف به مصريو هذا العصر ، ولم يتعلق المصري بالجندية أو يفاخر بانضمامه إلى الجيش بمثل ما فاخر به مصريو ذلك العصر .

ولا من شك أن حكم الهكسوس مصر كان العامل الأكبر الذي جعل الشعب المصري للمرة الأولى في تاريخه شعباً محارباً مستبسلاً في طلب الحرية فنالها ، ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى النصر فخرج خارج حدود بلاده بعد ذلك يطلب الغزو ويسعى وراء المغانم ، وما لبث أن خضعت له كل البلاد المجاورة فنشأت الإمبراطورية المصرية الأولى التي كونها البطل الفذ تحتمس الثالث . (١)

طوال حكم الهكسوس الذي تجاوز القرن لم يستسلم لهم المصريون ، ولم يتعاونوا معهم ، بل ظلوا معادين لهم ينظرون إليهم نظرة الكره والاحتقار حتى هبَّ أمراء طيبة يكافحون في سبيل استرداد حرية بلادهم المسلوبة وقد كتب الله لهم النجاح وتمكن أحمس من الاستيلاء على عاصمتهم في الدلتا ثم تبعهم إلى فلسطين حيث هزمهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في التاريخ . فسجل لهم بذلك فصل الختام من ذلك العهد البغيض المشئوم ، عهد الاحتلال والتحكم الأجنبي في البلاد . (٢)

هذه هي مصر التي يصفها البعض بأنها تفتح ذراعيها لكل غاز ، وهؤلاء هم المصريون الذي يصفهم من لا يعرف حقيقتهم بالخنوع والاستسلام والرضا بالهوان.

---

(1) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر والشرق الأدنى القديم " مرجع سابق ص ٣٤١ .
(2) د. على رضوان " مصر القديمة " مرجع سابق ص ٧ .

openkandil.com

نعم شعب مصر شعب مسالم يكره الحرب ويحب السلام لأنه شعب مؤمن يبغض سفك الدماء ، ويعشق الإصلاح والبناء ، لكن إذا كتب عليه القتال ، وهو كره له ، قاتل وانتصر .

ثورات مصر ضد الفرس

إن حياة الشعوب تشبه موج البحر لا استقرار لها فهي دائماً في صعود وهبوط فتظهر أسرة حاكمة تأخذ في أسباب الإصلاح فيعلو شأنها ويؤمَن جانبها وتبسط نفوذها على الشعوب الضعيفة . ثم يَخْلُف من بعدهم خَلْفٌ ضعاف يهملون الواجبات ويتبعون الشهوات فيبددون ما صنعه آباؤهم ويصغرون في عين أعدائهم فتدور الدائرة عليهم وتدول دولتهم .

فبعد أن طرد أحمس الهكسوس وقضى على ثورات النوبيين واتجه للإصلاح الداخلي مما جعل المؤرخين يُعِدُّونه رأس عهد جديد من أزهى عصور التاريخ وهو عهد الدولة الحديثة .

لكن في العصر المتأخر من التاريخ الفرعوني تكالبت العلل على مصر وبدأ عهد مظلم انتهى باحتلال الفرس لمصر ولم يخضع المصريون لهذا الاحتلال ، كما هي طبيعة المصرين مع الاحتلال الأجنبي فعندما غزا " قمبيز " الفارسي مصر سنة ٥٢٥ ق.م وهزم بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، ويروي هيرودوت أن قمبيز اضطهد المصريين فكرهوه ، وكان متعسفاً في معاملة الكهنة فنبذوه وتدخل في معتقدات المصريين وانتهك حرمة الديانة المصرية .(١)

وكما قلنا إن المصري لا يقبل أبداً أن تهان ديانته أو تنتهك كرامته أو تنهب ثرواته لذا وبرغم حالة الضعف التي كانت تمر بها مصر حينئذ فإن المصريين قاموا في سبيل حريتهم بالعديد من الثورات قُضي على أغلبها إلى أن انتهز "أميرتي" الملك

(١) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٦٥٨ .

المصري الذي كان جده قد آمن بفكرة أن الموت في سبيل بلاده أفضل وأشرف من الحياة تحت الاحتلال فرصة انقلاب الفرس على بعضهم فخرج على رأس أتباعه وأطلقوا نداء " حي على السلاح " في المصريين ، وهاجموا الفرس وتمكنوا من دحرهم خارج الحدود حتى سوريا ، وأعلنوا الاستقلال إلى أن مات بعد ست سنوات فتمكن أحد أتباعه من الحكم وهو " نفوريت " مكوناً الأسرة التاسعة والعشرين الوطنية أيضاً ، والتي بلغت مدة حكمها حوالي عشرين عاماً من ٣٩٨ ق. م إلى ٣٧٨ ق. م .

ثم الأسرة الثلاثون وهي أسرة وطنية حكمت من ٣٧٨ ق. م إلى ٣٤١ ق. م وعمل ملوكها بهمة من أجل صالح البلاد داخليّاً ، وكانوا في كفاح مستمر خارجيّاً ضد الفرس الذين كانوا يتحينون أية فرصة العودة إلى مصر . وقد عادوا فعلاً بعد انتهاء هذه الأسرة ، ولكن حكمهم لم يدم إلا أقل من عشر سنوات من ٣٤١ ق. م إلى ٣٣٢ ق. م فقد استولى الإسكندر على مصر وطرد الفرس منها ، وضمها إلى إمبراطوريته الناشئة . " [١]

لماذا رحّب المصريون بالإسكندر الأكبر ؟

كما استنجد المصريون بالمسلمين العرب من ظلم الرومان استنجد أجدادهم بالإسكندر الأكبر (ذي القرنين) الذين اعتقدوا بنبوته وأنه ابن آمون " رسول الله " ليخلصهم من ظلم الفرس .

والإسكندر الأكبر هو ذو القرنين على الراجح من أقوال المفسرين والمؤرخين .

" عن قتادة قال : الإسكندر هو ذو القرنين " [٢]

وذكر القرطبي أن ابن هشام قال عن ذي القرنين : " إنه الإسكندر الذي بنى مدينة الإسكندرية " [١]

([1]) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٤٩ ، ٥٠ .
([2]) الإمام السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " في تفسير قوله تعالى {يسألونك عن ذي القرنين}

obeikandl.com

وعن سبب تسمية الإسكندر الأكبر بذي القرنين يقول أحمد حسين في موسوعته تاريخ مصر : " وقد حرص الإسكندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل اسم ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التي سكها بقرني المقدس آمون ، ولعل ذلك مصدر تسميته " بذي القرنين " [2]

الإسكندر الأكبر نبي الله

الإسكندر (ذو القرنين) نبي من الأنبياء آتاه الله معجزات باهرة .

عن ابن عباس قال: ذو القرنين نبي " [3]

وقال الفخر الرازي في تفسيره : " كان ذو القرنين نبياً " [4]

والتاريخ يؤكد نبوة الإسكندر (ذي القرنين)

سار الإسكندر نحو مصر – وكانت إذ ذاك تحت حكم الفرس – ودخل مصر في خريف عام ٣٣٢ ق.م ، ولم يجد صعوبة في دخوله " إذ كان المصريون يرون فيه حليفاً لهم في ثورتهم وقتالهم ضد الفرس فقد استقبلوه استقبال الفاتحين ، مما جعل الوالي الفارسي يستسلم بدون مقاومة .

وصل الإسكندر إلى منف ، حيث أظهر ولاءه للديانة المصرية فقدم القرابين في معبد الإله بتاح [5] ، ورسم نفسه فرعوناً في معبد بتاح طبقاً للطقوس المصرية ، وأبى الإسكندر إلا أن يدمج نفسه في الديانة المصرية وكان " آمون " في سيوة يعتبر إلهاً

([1]) تفسير القرطبي لقوله تعالى { يسألونك عن ذي القرنين } .
([2]) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ ص ١٧٨ دار الشعب .
([3])الإمام السيوطي " الدر المنثور " في تفسير قوله تعالى { يسألونك عن ذي القرنين }
([4]) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " المجلد السادس كتاب حديث الأنبياء .
([5]) " بتاح " اسم من أسماء الله الحسنى عند المصريين القدماء ويعني : اسم الله الخالق ، كما أن " آمون " معناه : الذي لا تدركه الأبصار . و" رع " معناه : إله الشمس ، و" خنوم " المبدئ .. فهذه الأسماء وغيرها عرفها المصريون القدماء ، في عصور ازدهار العقيدة ، على أنها صفات لله الواحد الأحد ، وليست أسماء للآلهة متعددة . راجع كتابنا "رؤية إسلامية للحضارات الإنسانية"

obeikandl.com

عالمياً يحج إليه أبناء العالم القديم كله ويعرفه الإغريق ليسألوه بصفة خاصة عن حاجاتهم .

فاخترق الإسكندر الصحراء من الإسكندرية حيث وصل إلى معبد آمون في واحة سيوة في رحلة شاقة مليئة بالأخطار واعتبر وصوله في خاتمة المطاف إحدى المعجزات ومظهر حفظ الآلهة له .. وفي معبد آمون نودي بالإسكندر ابناً لآمون .. مؤكداً بذلك قصة أمه أوليماس من أنه ابن زيوس إله اليونان .

وقد حرص الإسكندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل اسم ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التي سكها بقرني المقدس آمون ، ولعل ذلك مصدر تسميته " بذي القرنين " [1]

وهناك كثير من العملات الموجودة في مصر وغيرها من البلاد التي نقشت عليها صورة الإسكندر وجميعها تصوره بقرنين .

وقد ذكر المؤرخون ومن بينهم : استرابيون " و " وكالستينس " كثيراً من القصص التي وردت في برديات " بطليموس الأول " منها أن الإسكندر ضلَّ الطريق في مجاهل الصحراء فخرجت له الكوبرا حامية المعبد لتسير رافعة الرأس أمام القافلة حتى أوصلته إلى المعبد ، وقصة دخوله محراب آمون وأنه سمع الإله يناديه بقوله " يا بني " وأنه باركه في حروبه المقدسة ويؤكد المؤرخ سترابون أنه سمع تمثال أمون يخاطب الإسكندر بقوله : " إنك ابني ، وإني أعطيك الشجاعة وأمرتك أن تحضر لزيارتي ، وإني أمنحك السيطرة على كل البلاد وكل الأقطار الأجنبية تحت قدميك " [2]

ولا ينبغي أن تفزعنا عبارة الإسكندر ابن آمون ، أو ابن إله اليونان فإن هذه العبارات لا تعني معناها الحرفي بل المقصود بها التشريف وكان هذا الأمر شائعاً عند أهل الكتاب . وهي تعني في شريعتهم أنبياء الله ورسله .

([1]) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ ص ١٧٨ مرجع سابق .
([2]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٢١٥ ، ٢١٦

obeikandl.com

{وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } (المائدة:١٨)

قال الإمام الألوسي في تفسير الآية : " ومرادهم بالأبناء المقربون أي نحن مقربون عند الله تعالى . إن إطلاق ابن الله تعالى على المطيع قد كان في الزمن القديم ، ففي التوراة قال الله تعالى لموسى: اذهب إلى فرعون وقل له يقول لك الرب إسرائيل ابني بكري أرسله يعبدني فإن أبيت أن ترسل ابني بكري قتلت ابنك بكرك ، وفيها أيضاً في قصة الطوفان أنه لما نظر بنو الله تعالى إلى بنات الناس وهم حسان جداً شغفوا بهن فنكحوا منهن ما أحبوا واختاروا فولدوا جبابرة فأفسدوا فقال الله تعالى : لا تحل عنايتي على هؤلاء القوم ، وأريد بأبناء الله تعالى أولاد هابيل ، وبأبناء الناس أبناء قابيل ، وفي المزامير أنت ابني سلني أعطك ، وفيها أيضاً أنت ابني وحبيبي . " [1]

إذن لا ترجع السرعة التي أتم بها الإسكندر فتح مصر إلى تفوقه العسكري على الفرس بل ترجع أيضاً إلى مساعدة المصريين له ؛ فقد كانوا في ثورة مستمرة ضد المحتلين الفرس الذين ارتكبوا الجرائم الكبرى التي إذا مس إحداها ثار المصريون ، الإساءة إلى عقيدتهم المقدسة ، وسلبهم حريتهم ، وأرزاقهم .

كان الإغريق في نظر المصريين أصدقاء وحلفاء طالما عاونهم على استرداد حريتهم المسلوبة كما رأوا في الإسكندر منقذاً ومنجداً لهم من الاستعمار البغيض . وقد بهرت حضارة مصر العريقة الإسكندر الذي بدأ بالتقرب من المصريين محاولاً إرضاء شعورهم القومي والديني فاحترم العقيدة المصرية وقدَّم القرابين لآمون (الذي لا تركه الأبصار) وقام برحلة إلى واحة سيوة حيث زار معبد الإله آمون ، وهناك منحه الكهنة لقب " ابن آمون " . [2]

([1]) الإمام الألوسي " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم " ج ٤ ص ٤٣٤

([2]) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٨٨ .

مصر والحضارة الهلينستية

فكر الإسكندر في تكوين حضارة جديدة تجمع بين مزايا الحضارات الشرقية العريضة والحضارة الإغريقية الناشئة ؛ ولتحقيق ذلك عمل على فتح أبواب الشرق على مصراعيها أمام الإغريق للإقامة بها كما أقام بعض المدن الجديدة كالإسكندرية في مصر وغيرها لتصبح مراكز لنمو تلك الحضارة الجديدة ولتعمل على نشرها في كل مكان ، وقد سميت هذه الحضارة الجديدة باسم " الحضارة الهلينستية " .

وقد ازدهرت الحضارة الهلينستية في مصر إذ وجدت فيها تربة خصبة للنمو على نحو لم تشهده في بلاد الإغريق نفسها وذلك لأنها أفادت من حضارات بلادنا العريقة كما وجدت فيها أنظمة راسخة وثروة بشرية ومادية عظيمة فضلاً عن موقعها الفريد وسط العالم المتمدين في ذلك الوقت ، فكانت بلادنا بذلك بمثابة المصنع الذي صُنِعَت فيه الحضارة الجديدة ، وأصبحت مدينة الإسكندرية النموذج الأمثل لها . ومنها أشَعَّت تلك الحضارة على باقي أجزاء العالم ، وفيها احتفظ أجدادنا بعناصرها مئات السنين .

ولم يعش الإسكندر طويلاً ليحقق أماله في بناء تلك الحضارة وترك لخلفائه في مصر تحقيق ذلك الأمل . (1)

لذا لا عجب أن المصرين لم يعتبروا الإغريق محتلين إنما اعتبروهم ، كما سيعتبرون المسلمين العرب بعد ذلك ، فاتحين وتعاونوا معهم على طرد المحتلين وساهموا معهم في بناء حضارة جديدة تعد امتداداً طبيعيّاً لحضارتهم القديمة .

وعمل البطالمة على التقرب من المصريين فاحتفظوا بمعظم نواحي التنظيم الإداري التي خلَّفها لهم الفراعنة مع إدخال تعديلات طفيفة اقتضتها الظروف ، ولم يحاولوا التدخل في شئون المصريين المدنية أو عاداتهم أو تقاليدهم أو طرق حياتهم حرصاً

(1) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٠ .

Obeikandi.com

منهم على كسب مودتهم وقد احتفظ المصريون كعادتهم بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من مظاهر الحضارة المصرية القديمة ولم تكن للحضارة الإغريقية من سبيل إليها إلا فيما ندر .

كما تبع الإسكندر والبطالمة من بعده سياسة تجاه الحضارة المصرية بوجه عام والديانة المصرية بوجه خاص تنطوي على الاحترام الكامل فتسابقوا على حمل الألقاب الملكية القديمة ومثلوا أنفسهم في المناسبات الرسمية مرتدين زي الفراعنة(١)

والسؤال الآن إذا كان المصريون قد تحالفوا مع البطالمة بل تآلفوا معهم إلى حد الاندماج الحضاري والديني فلماذا ثاروا عليهم في آخر عهدهم ؟

ثورات المصريين ضد البطالمة

حكم البطالمة وهم السلالة التي انحدرت من بطليموس أحد قادة الإسكندر المقربين مصر منذ ٣٣٣ حتى ٣٠ ق.م ، حيث تولى حكم مصر ١٥ ملكاً بطلميّاً،ويمكن تقسيم تاريخ حكم البطالمة لمصر إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأول : وهي فترة حكم البطالمة الأوائل من ٣٢٣ إلى ٢٢٢ ق.م وهي فترة رخاء وثراء وقوة .

المرحلة الثانية / وهي من ٢٢٢ إلى ١١٧ ق.م تبدأ خلالها البلاد في التخلف ، أو هي بداية الانهيار ، حيث انقسمت العائلة المالكة على نفسها بسبب طموحات بعضهم الزائدة ، مما أدى في النهاية إلى كثرة تدخل الرومان في أحوال مصر الداخلية .

المرحلة الثالثة : من ١١٧ إلى ٣٠ ق.م وهي التي وصلت البلاد في نهايتها إلى الانهيار الكامل ، وخلال هذه الفترة نجد أن بعض الحكام يلجئون إلى الرومان للتدخل لإبقائهم على العرش . (١)

(١) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٤ .

obeikandl.com

وبرغم أن البطالمة كان يعتبرهم المصريون حلفاء لا محتلين دخلاء إلا أن هذا لم يمنع المصريين من الثورة على البطالمة المستبدين الذين ظلموهم وجاروا عليهم .

قام المصريون بثورتهم الأولى على البطالمة في عهد الملك "بطليموس إيوار جيتيس الأول " بعدما انخفض منسوب مياه الفيضان ، وحلَّ القحط بالبلاد ، وأشرف الناس على الهلاك ، ومن ثمَّ اشتدَّ سخط المصريين على الملك الذي كان يشتد في القسوة عليهم ، وينفق أمالهم في حروب لا طائل تحتها .

ظل المصريون في ثورتهم حتى عاد الملك من الخارج ومعه قواته المسلحة المقدونية والإغريقية ، فأطلق يده ضد المصريين حتى أخمدت ثورتهم ، وقد حاول الملك ، بعد ذلك ، استرضاء المصريين وكسب ودهم فأنفق من أمواله الخاصة ، واستورد الغلال من سوريا وقبرص وفينيقيا ، ووزعها على الأهالي الذين تهددتهم المجاعة . (٢)

لقد زخر تاريخ البطالمة والسليوقيين بالحروب بينهما فالبطالمة يحاولون السيطرة على سورية ، والسليوقيون بدروهم يعارضون أطماع البطالمة ويردون على ذلك بالرغبة في الاستيلاء على مصر ، وقد أضعفت تلك الحروب كلا البلدين .

وقد نجح السليوقيون في هزيمة الجيش البطلمي في عهد بطليموس الثالث وطرده من سورية ، وقد طلب بطليموس الرابع مساعدة المصريين في حربه مع السليقويين وقد هبَّ المصريون لنجدة بطليموس لأنهم يعتبرون البطالمة أصدقاء وحلفاء وشركاء في تشييد الحضارة الجديدة " الهلينستية " ولقد تمكَّن الجيش المصري من إحراز النصر على السليوقيين في معركة رفح عام ٢١٧ ق. م ، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ زمن طويل التي يشترك فيها جنود مصريين في إحدى المعارك وينتزعون النصر وأحس الجيش المصري وقد استعاد ثقته بنفسه وقوته أنه جدير بحكم مصر بدلاً من الحكام البطالمة الضعاف .

([1]) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٦٠ .
([2]) د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ٩٥ .

obeikandl.com

وما إن عاد المصريون من ميدان القتال مزهوين بنصرهم حتى ملأت الثقة نفوسهم وبدءوا يبحثون عن الزعيم الذي يقود ثورتهم الثانية ، وسرعان ما عثروا عليه فأشعلوا الثورة على الفور في الدلتا ومصر الوسطى ، ثم امتد لهيبها إلى مصر العليا فتأججت هناك عام ٢٠٧ – ٢٠٦ ق.م .

وكانت هذه الثورة الشعبية عنيفة جارفة قضى فيها الثوار على كل من كان يحاول الوقوف في وجوههم ، وقد راجت في أثناء الثورة تكهنات كثيرة تبشر بقرب انتهاء حكم الأجانب المقدونيين وعودة البلاد إلى أبنائها الوطنيين .

وقاوم بطليموس الرابع هذه الثورة العارمة بكل قواته العسكرية حتى استطاع آخر الأمر أن يخمدها بعد أن كابد خسائر فادحة في رجاله وأمواله .

ولكن للأسف أن هذه الثورة كانت قريبة الشبه بالثورة على " بيبي الثاني " فتحدثنا الوثائق البردية بأن المصريين لم يكتفوا بتحطيم ممتلكات الأجانب ، وإنما اعتدوا أيضاً على منازل بعض الوطنيين كما يحدثنا " حجر رشيد " بأنهم اعتدوا على المعابد وأعملوا فيها التخريب ، وتمخضت أعمال العنف التي قام بها الثوَّار المصريون على بور كثير من الأراضي الزراعية ، وتعطيل عدد كبير من الصناعات ، هذا إلى أن الفوضى الشاملة التي نزلت بمصر قد أثرت تأثيراً على رخاء البلاد وأمنه واستقراره [١]

قضى بطليموس الرابع على الثورة الثانية ولكن نارها مازالت مشتعلة تحت الرماد وعندما اعتلى بطليموس الخامس عرش مصر وهو حدث صغير السن وتولى الوصاية فاسق يدعى " أجاثوكليس " وامتلأت البلاد بالدسائس والمؤامرات ، فكانت فرصة استغلها المصريون لمواصلة الكفاح في سبيل التحرير من الحكم الأجنبي .

وأدى ما انغمس فيه الملك من فسق وفجور مع أفراد حاشيته الفاجرة إلى ضعف السلطة المركزية والاستهانة بها ، ومن ثمَّ بدأت نيران الثورة تشتعل في الإسكندرية

([1]) لمزيد من التفاصيل حول الثورة الثانية ضد البطالمة انظر د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ٩٩– ١٠٢ .

عاصمة البطالمة وحصنها الحصين ، فقتل " أجاثوكليس " وأعوانه الفاسدين ، واضطربت شئون العاصمة اضطراباً شديداً ، ولم تلبث الثورة أن امتدت إلى أنحاء الدلتا حيث ضاق الفلاحون والصناع المصريون بضروب العسف والاضطهاد التي أثقلت كواهلهم ؛ فقاموا بهجمات على كل ما يمثل الثروة والقوة . أما في أعالي الصعيد فقد بقي إقليم طيبة مستقلاً عن البطالمة يحكمه ملك نوبي يدعى "عنخماخيس" .

وبينما أوصياء بطليموس الخامس يعبئون كل جهودهم وقواهم لكبح جماح الثورات المصرية نزلت بالبطالمة ضربة قاصمة من الخارج فقد انتهز الملك السلوقي فرصة الفوضى التي عمت وادي النيل والتحم هو والقوات البطلمية في معركة فاصلة فهزمها شر هزيمة ، وانتزع من البطالمة ممتلكاتهم في سوريا الصغرى وتراقيا ، كما أضاع من أيديهم تجارة القوافل السورية وأسواقهم في بحر إيجة .

وحاول بطليموس الخامس إصلاح الأمور واستمالة المصريين إليه لعلهم يركنون للهدوء فأصدر قراراً ملكيّاً عفا بموجبه على الثوار عفواً عاماً وعن الجنود المصريين بوجه خاص ، وأغدق على المعابد والأهلي كثيراً من المنح والهبات ، وألغى الضرائب ، ونزل عما له من ديون متأخرة لدى المدينين المصريين . وأطلق سراح المسجونين ، وأعطى الهاربين الأمان ، وسمح لهم بالعودة إلى ممتلكاتهم .

فهل هدأ المصريون بعد ذلك ؟ وهل أفلحت معهم هذه الأساليب ؟ إن العزة الوطنية لا يمكن أن تشترى بأي ثمن ، ولم يثر المصريون على البطالمة لأن الضرائب التي فرضوها عليهم باهظة ، أو لأنهم كانوا يسخرونهم في شتى الأعمال الشاقة المرهقة، وإنما ثاروا لعزتهم الوطنية التي سلبت ، ولكرامتهم القومية التي أهدرت على أيدي طغاة البطالمة .

واستمر المصريون في ثورتهم العارمة ، واستبسلوا في وجه جيوش الملك التي أرسلها لإخماد الثروة ، ولم تستطع جيوش الملك أن تقضي على الثورة إلا بعد أن تكبدت أفدح الخسائر . (١)

وأخذت دولة البطالة تنهار سريعاً بعد أن وصلت ثورات المصريين عليهم إلى ست ثورات قوضت دعائمها ، وأنهكت قواها الغزوات الخارجية المتلاحقة . فضلاً عن التدخل الروماني الذي أخذ يتزايد بصورة واضحة حتى غدا الملوك البطالمة مجرد أدوات في أيدي الساسة الرومان ومجلس الشيوخ الروماني .

وانتهى أمر البطالمة بتولي العرش بطليموس الثاني عشر مشتركاً مع أخته كليوباترا الشهيرة التي حاولت بكل السبل أن تعيد إلى دولة البطالمة سابق مجدها وعزها ، فباءت بالفشل ، واضطرت إلى الانتحار لتجنب نفسها مرارة الوقوع في أسر القائد الروماني . (٢)

ثورات المصريين ضد الرومان

لم تُرْهِب قواتُ الرومان الضخمة المدربة المصريين فلم تكد تمضي بضعة أشهر على احتلال الرومان مصر حتى نشبت الثورة ، وكان من الطبيعي أن تنشب أولاً في جنوب الوادي ، وفي منطقة طيبة خاصة معقل الحركات الوطنية التي تزعمها الكهنة المصريون من قديم الزمن ضد الغزاة ، وقد هبَّت طيبة ثائرة في وجه البطالمة الأواخر ، وكادت أن تستقل بنفسها مما أوغر صدور البطالمة عليها فدمروها تدميراً في سنة ٨٨ ق.م .

ولم تكد طيبة والمنطقة المحيطة بها تسمع بوصول الرومان حتى شقت عصا الطاعة ، وتمردت عليهم ، وما لبثت أن أعلنت الثورة ، ونكَّلت بجباة الضرائب

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول الثورة الثالثة ضد البطالمة انظر د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٠٣-١٠٦ .

(2) د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٢٤ .

الرومـان ، واسـتولى الرعـب علـى الـسلطات الرومانيـة بالإسـكندرية ، ولـم تجـد إزاء استفحال الخطر سوى تجريد حملـة قويـة لقمـع الثـورة المـصرية ، وتـولى قيـادة الحملـة الحاكم نفسه " كورنيليوس جاللوس " الذي سجل خبر الثورة وإخمادها على نقش بثلاث لغات : اللاتينية ، واليونانية ، والمصرية القديمة . (١)

وهكذا فإن مصر أثبتت أن دماء الكبرياء لا ينضب من عروقها مهما كثر المحتلين وتعاقب عليها الغزاة فهي تعلن الثورة على كل ظالم مغتصب فإن أُخمدت ثورتها لجأت إلى حرب العصابات ففي عام ١٧٢م إبان الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس قام الفلاحون المصريون في شمال الدلتا بثورة عنيفة اتخذت شكل حرب العصابات ، وعرفت باسم " ثورة الرعاة " تلك الثورة التي نشبت بعد إجهاض ثورات إقليم طيبة في مطلع ذلك عصر الروماني ، وقد تزعم الثورة أحد الكهنة وهو "ايزيدور".

والواقع أن أحوال الفلاحين المصريين كانت تزداد سوءاً على مر الأيام حتى بلغت عند منتصف القرن الثاني الميلادي حدّاً لا يحتمل تحت وطأة نظام الضرائب بالغ الإرهاق وخدمات إلزامية لم توزع توزيعاً متكافئاً مع القدرة المالية بين الأغنياء والفقراء ، وأعمال سخرة أُكْره عليها الفلاحون وشملت أشخاصهم ودوابهم. وقد ترتب على ثورة اليهود المدمرة في عصر تراجان تخريب الأراضي الزراعية وإهمال نظام الري ؛ فساءت أحوال الزراعة وهجر الفلاحون أراضيهم التي لم يروا جدوى من فلاحتها ما دام لا يبقى لهم من ثمرة الجهود إلا النزر اليسير .

وهكذا بدأ الرومان يحصدون الثمار المرة لسياستهم الخرقاء في ابتزاز ثروة مصر وامتصاص الطاقة الإنتاجية لأرضها وأهلها .

وانتهز المصريون فرصة سحب بعض القوات الرومانية من مصر للمشاركة في الحروب في منطقة الدانوب فثاروا ثورتهم تلك التي بلغ من عنفها أن عجزت القوات

(١) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٤٩ .

obeikandl.com

الرومانية عن مواجهتها ، بل كادت الإسكندرية نفسها أن تسقط في يد الثوَّار لولا وصول نجدة من سوريا بقيادة " أفيديوس كاسيوس " الذي استطاع بالخديعة أن يوقع بين الثوَّار ويقضي عليهم عام ١٧٥م . (١)

ولم تكف الإسكندرية بعد هذا التاريخ عن مناوأة الحكم الروماني بشتى الوسائل ، واتخذت مقاومتها مظهراً آخر وهو تأييد قواد الجيوش المرابطة في الشرق الذين كانوا يتمردون على السلطة الشرعية في روما ، وينادون بأنفسهم أباطرة كما حدث بعد اغتيال الإمبراطور " برتيناكس " الذي ارتقى عرش الإمبراطورية فترة قصيرة بعد مصرع " كومودوس " في آخر عام ١٩٢ م فقد وقع اختيار الحرس البريتوري في روما على رجل ثري من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني يدعى " ديديوس جوليانوس " ولكن المصريين الذين كانوا يتحينون الفرصة لمعارضة روما لم يعترفوا بهذا المرشح وناصروا رجلاً آخر يدعى " بسكنيوس " كان قد نال الحظوة بين الأهالي بما أبداه من حزم في كبح جماح جنود الرومان ومنعهم من النهب والسلب .

غير أن " بسكنيوس " لم يلبث أن اصطدم بمنافس آخر أقوى منه وهو " سبتميوس " الذي آل إليه العرش في أواخر عام ١٩٣ م . (٢)

كما لجأ المصريون إلى العصيان المدني لمقاومة الاحتلال الروماني فترك الفلاحين قراهم وتسللوا إلى داخل الإسكندرية ليدبروا بالاشتراك المصريين المقيمين بالمدينة ومع الإغريق المؤامرات والفتن ، ويثروا القلاقل والشغب ضد السلطات الرومانية، وكانوا يهملون عن قصد شئون الزراعة ، ويهجرون الحقول مما كان يؤدي إلى هبوط المحصول وقلة حصيلة الضرائب ونقص الدخل بوجه عام ، وكان الفرار من الأرض سلاحاً بتَّاراً قاوم به المصريون الحكومة الرومانية المتعنتة ، وأدى إلى إقفار الريف وتدهور الزراعة وانهيار الاقتصاد واضمحلال النفوذ الروماني . (٣)

([1]) د. فاروق موسوعة تاريخ مصر عبر العصور " العصر الروماني " مرجع سابق . ص ٤٦١، ٤٦٢ .

([2]) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٨٧ .

([3]) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٩٠ .

المسيحية والمقاومة الروحية

ويدخل عامل جديد كان له أكبر الأثر في تقوية الروح المعنوية وتعزيز الحركة الوطنية ألا وهو دخول المسيحية إلى مصر ، ولقد وجدت المسيحية في مصر أرضاً خصبة ؛ فالشعب المصري يمتاز بتدينه ، كما سبق وبينَّا، والعقيدة المصرية القديمة كانت لا تزال ذات سيادة قوية على قلوب وعقول المصريين ، ولها تأثيرها في جميع أمور حياتهم لذا آمن المصريون بالمسيحية منذ بشَّر بها القديس بولس في القرن الأول الميلادي وبدأت تنتشر في القرن الثاني ، ولم يكد يأتي القرن الرابع الميلادي حتى ذاعت المسيحية في كل ربوع مصر ، وتبدَّت مظاهرها في سائر أنشطة الحياة الدينية والفكرية والثقافية .

يقول د.عبد المنعم ماجد : " تقول الروايات المسيحية أن أول من دعا لها في مصر القديس مرقص الرسول أحد تلامذة المسيح الذي جاء في نحو منتصف القرن الأول ، ولكن الأسانيد التاريخية ، مثل مراسيم التعذيب كما وردت في أوراق البرديات تدل على أن المسيحية انتشرت في مصر في عهد الإمبراطور دسيوس في القرن الثالث ، ويظهر أن المسيحية انتشرت بصفة مؤكدة انتشاراً كبيراً في كل أنحاء مصر في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل القرن الرابع . " (١)

وارتبط الشعب المصري بالكنيسة المصرية ومذهبها ، ورفض القرارات الدينية التي تصدرها الكنيسة التابعة للدولة البيزنطية في عاصمتها القسطنطينية إذا تعارضت مع قانون الإيمان للكنيسة المصرية .

ووجد المصريون في المسيحية رفضاً للوجود الروماني في مصر وأصبح الدين أداة التعبير عن الرغبة في التحرر من الحكم البيزنطي ، وأحيوا لغة وطنية هي اللغة القبطية لتأكيد الرغبة في التحرر من البيزنطيين .

---

(١) نفسه ص ١٨٧ .

وقد أثار مسلك الجماعات المسيحية الأولى ارتياب السلطات الرومانية حتى حسبتها تهدف إلى نشر الفوضى الأخلاقية وإثارة التمرد على الأوضاع القائمة ومناوأة سياسة الحكومة ، ولهذا اعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين طائفة غريبة الأطوار خارجة على المجتمع ، هدامة لكيانه ، وقد اُتُّهِمَ المسيحيون بمختلف الجرائم ، ورُموا بالموبقات ، وحُمِّلُوا مسئولية الكوارث الوطنية والثورات الأهلية .

والحق أن الطوائف المسيحية قد ثبتت للمحنة ؛ فلم تلن لها قناة أمام التهديد والوعيد أو التعذيب الوحشي . (١)

وقد بدأ الاضطهاد الرسمي للمسيحيين في عصر الإمبراطور نيرون (٥٤- ٦٨) الذي قام بإحراق مدينة روما ثم ألصق تهمة إحراقها بمسيحيي روما ، وانهال الإمبراطور وجنده وأتباعه على المسيحيين قتلاً وتنكيلاً في أبشع صورة .

وبعد ذلك بفترة تابع الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (١٩٣- ٢١١) موجة الاضطهاد ضد المسيحيين ؛ فقد أصدر قراراً بضرورة سجود جميع المواطنين في الولايات الرومانية لتمثاله وإحراق البخور عند قدمي التمثال ، وكان عقاب من يعصي الأوامر الإمبراطورية الموت بقطع الرأس ، أو بتقديمه طعاماً للأسود ، أو بالحرق حيّاً ، ثم أمر الإمبراطور بإغلاق المدرسة الدينية المسيحية في الإسكندرية ونكَّل بالمسيحيين المصريين تنكيلاً ، وظلَّ الأمر على نفس الحال التعسة إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥) الذي عرف بعصر الاضطهاد الأكبر للمسيحيين خاصة مسيحيي مصر ؛ فقلد أصدر دقلديانوس مرسوماً إمبراطوريّاً بهدم الكنائس ، وحرق الكتب المقدسة ، وإعدام كل من يتبع التعاليم المسيحية سرّاً أو جهراً وقد بلغ عدد شهداء المسيحيين في مصر ١٤٤.٠٠٠ شهيد ، ويقدر بعض الدارسين هذا العدد بحوالي ٨٠٠.٠٠٠ شهيد ، وبسبب هذا الاضطهاد الوبيل اعتبر المصريون

(١) د. عبد المنعم ماجد " ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر " دار الفكر العربي ص ٤١

أول سنة من حكم الإمبراطور دقلديانوس وهي سنة ٢٨٤ م بداية التقويم القبطي ، وعرف هذا التاريخ باسم " عام الشهداء " . (١)

ولكن مصر المسيحية المؤمنة لم ترضخ للاضطهاد الروماني فقد ثارت الإسكندرية على الحكم الروماني بقيادة دوميتيوس وهو ضابط روماني ، اعترف المصريون به إمبراطوراً في عام ٢٩٥م ، نكاية في دقليانوس ، الذي اضطر إلى الحضور إلى مصر بنفسه ليقمع الثورة ، فحاصر الإسكندرية ثمانية أشهر ، ولم يستطع أن يأخذها عنوة إلا بعد أن دمَّر جانباً كبيراً منها . وسرعان ما احتدمت الاضطرابات في أواخر عهده عندما أرادت السلطات الرومانية فرض عبادة الإمبراطور على المصريين بعدما تزايدت بينهم أعداد المسيحيين الذين قاوموا هذا الاتجاه مقاومة عنيفة معرضين أنفسهم لموجة من الإرهاب الشديد ، استشهد فيها آلاف من السكان من كل الطبقات(٢)

ولكن جميع هذه الاضطهادات التي تعرض لها المصريون من جانب السلطات الرومانية لم تزدهم إلا تشبثاً بعقيدتهم الجديدة التي أمدتهم بقوة روحية على احتمال الاستبداد السياسي ووجدوا فيها متنفساً لما يعانونه من ضيق اقتصادي ، وزودتهم بالأمل في الخلاص في الحياة ، ولهذا زاد أنصار المسيحية واشتد بأسها ، حتى مجيء الإمبراطور قسطنطين (٣١١ – ٣٣٧) الذي أصدر مرسوماً شهيراً سنة ٣١٣ م أعلن فيه سياسة التسامح مع الديانة المسيحية ، وعندما جاء الإمبراطور "ثيودوسيوس" الكبير إلى الحكم (٣٧٨ – ٣٩٥) أصدر مرسوماً يلغي الوثنية في كل ولايات الدولة البيزنطية ، واعترف بالمسيحية ديانة رسمية للدولة . (٣)

---

(1) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مطابع الأهرام التجارية . ص ٢٣٩ .

(2) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق . ص ١٩٥ .

(3) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مرجع سابق . ص ٢٤٠ .

ونتيجة لكره المصريين للاحتلال رفضوا الاختلاط بالرومان والتأثر بعاداتهم ، والمشاركة في أعمالهم ، والتحدث بلغتهم لذا بدأت الحضارة الهلينية تحتضر في مصر ، وتدنو من نهايتها المحتومة ، فقل استعمال اللغة الإغريقية وكل ما يتصل بها حتى اندثرت ، وانبعثت من جديد اللغة المصرية القديمة في صورة اللغة القبطية وإن كُتِبَت معظم حروفها باليونانية ، ووجد المصريون فيها متنفساً للتعبير عن مشاعرهم .

وأهم من ذلك كله أن مصر ابتكرت نظام الرهبنة ، ذلك النظام الذي أخذت به المسيحية ، وقام بدور مهم في تاريخها .

ويدعونا ذكر الرهبنة أو يعود بنا إلى مظهر مهم من مظاهر المقاومة الشعبية في مصر الرومانية فقد أرهق الرومان المصريين بشتى الضرائب ، ولا سيما ضريبة الرأس ، وأثقلوا كاهلهم بمختلف الأعباء الإلزامية ، كزراعة الأراضي المهجورة بالرغم عنهم ، حتى ضاق الفلاحون ذرعاً بالحياة ، وكان سلاحهم القاطع عندما يفيض بهم الكيل أو يفوق ما يعانونه حد الاحتمال هو الامتناع عن دفع الضرائب ، أو الفرار من قراهم إلى قرى أخرى أو إلى الصحراء .

وكما فرَّ الفلاحون المصريون قبل المسيحية إلى مواطن أخرى هرباً من عنت السلطات – فروا أيام المسيحية إلى الصحراء تخلصاً من الاضطهاد الديني أو الضيق الاقتصادي أو استجابة لوحي مقدس أو حباً في العزلة ، حيث تخلُّوا عن عرَض الدنيا ، واهبين أنفسهم للتعبد والتنسك ، منقطعين لخدمة الإله .

ومن الخطأ أن نعتبر الرهبنة هروباً من مواجهة الحياة ومسئولياتها إذ كانت في الواقع على العكس من ذلك في معظم الأحيان فقد فرَّ الرهبان ليواجهوا عدوهم في عقر داره غير معتمدين إلا على عون الإله ، وكانت صلواتهم سلاحاً فتَّاكاً في المعركة المريرة التي خاضتها الكنيسة ضد قوى الشر والظلام . (١)

(١) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق . ص ١٩٧ – ١٩٩ بتصرف.

وهكذا نرى أن مصر قاومت الغزاة الرومان بكل ما تيسر لها من أسلحة : قاومتهم بالعتاد الحربي ، واستماتت في الدفاع حتى إذا ما غُلبت على أمرها قاومتهم بالثورات التي جعلت من الوادي جحيماً لا يطاق ، فإذا ما أخمدت الثورة لجأت إلى حرب العصابات ، فإذا ما أعوزها السلاح لجأ فلاحوها إلى العصيان ، أو الإضراب أو الفرار من الأرض والاختفاء عن الأنظار في الأدغال أو مجاهل الصحراء .

فإذا ما أعيتها الحيل لجأت إلى سلاح آخر بتَّار : لجأت إلى المقاومة السلبية فبذرت بذور الكراهية للمحتلين عن طريق المنشورات السياسية أو رفضت التعاون مع الغاصبين ، ولم تتأثر بثقافتهم أو تأخذ بأساليب معيشتهم أو تؤمن بآلهتهم بل اتخذت من تراثها الموغل في القديم ، وديانتها الأصيلة وكبريائها الوطني دروعاً تتقي بها شتى المؤامرات التي كانت كلها بالرغم من طول فترات الاحتلال كالزبد الطافي الذي يذهب هباءً .(١)

لقد ظلت مصر ترزح تحت الاحتلال الروماني والبيزنطي أكثر من ستة قرون (٣٠ ق.م – ٦٤١م) حتى بدأت حركة الفتوح الإسلامية التي حررت الشام من أيدي البيزنطيين زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي عرف بسماحته وعدله حتى لقب بالفاروق ، وتطلع الأقباط إلى الخليفة عمر بن الخطاب لكي يبعث بمن يخلصهم من مخالب الروم (البيزنطيين) واضطهادهم وفساد موظفيهم وجباة ضرائبهم ، وبخاصة بعد أن سمعوا أن المسلمين لا يتدخلون في عقائد الآخرين { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } (الكافرون : ٦)

ومن هنا جاءت حملة القائد عمرو بن العاص لفتح مصر وكان النصر حليفه على البيزنطيين في عدة معارك أهمها حصن بابليون في ٩ أبريل ٦٤١م ، وفي نوفمبر من نفس العام اضطر حاكم الإسكندرية البيزنطي إلى تسليم المدينة إلى عمرو بن العاص ثم الإبحار هو ورجاله عنها في ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م ، وخرج الرهبان من

(١) نفسه ص ٢٠٠ .

أديرتهم يحملون الدفوف يرحبون بقدوم عمرو بن العاص ورجاله ، ولا عجب فالعرب هم أبناء هاجر أم إسماعيل وهي أخت المصريين جميعاً . (١)

ليس بسبب صلة القرابة فحسب رحبَّ أقباط مصر بالعرب الفاتحين وإنما أيضاً لأن ما أنزل على محمد ﷺ من دين ، والذي جاء به عيسى ﷺ الذي يؤمنون به ليخرج من مشكاة واحدة كما قال النجاشي ملك الحبشة الصالح .

فقد قال النجاشي للمسلمين المهاجرين إلى الحبشة بعد أن قرأ عليه جعفر بن أبي طالب آيات من سورة مريم : " إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة "

***

(١) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مرجع سابق . ص ٢٤٦ .

obeikandl.com